الفصل الأول

النظرية السوسيولوجية

بناؤها وعناصرها

المحتويات :

اولا : النظرية : بناؤها وعلاقتها بالواقع

ثانيا : النظرية السوسيولوجية : أصولها وطبيعتها .

١ ــ الفكر المثالى ، أصوله واسهاماته فى النظرية الاجتماعية

(أ) خصائص التصور المثالى

١ ــ الوحدة الكلية الشاملة ، كأساس للادراك الشامل .

٢ ــ التصور العضوى الشامل للوجود .

٣ ــ التطور التاريخى المتكامل سعيا لمثال اكثر تكاملا .

٤ ــ العقل أو الفكر قائد التفاعل ليتسق الواقع مع المثال .

(ب) أسس المنهج الجدلى .

١ ــ الاساس الاول : الترابط

٢ ــ الاساس الثانى : التحول الشامل

٣ ــ الاساس الثالث : التحول النوعى

٤ ــ الأساس الرابع : نضال الأضداد

٢ ــ الفكر الوضعى : أصوله واسهاماته فى النظرية الاجتماعية

ثالثا : الايديولوجيا ونظرية علم الاجتماع .

الفصل الأول

النظرية السوسيولوجية
بنـاؤها وعناصرها

تهدف هذه الدراسة الى محاولة تحديد الاسس النظريـة والمنهجيـة للمدرسة الوظيفية فى علم الاجتماع . اذ يمثل الاتجاه الوظيفى بنـاء نظريا له مقولاته أو قضاياه النظرية التى تلزم الباحث الوظيفى ان يستنبط منها فروضه ، وأيضا ان يلتزم بهذه القضايا فى مسلكه المنهجى اعنى فى دراسـة هذه الفروض أو اختبارها . من هنا يصبح من الضرورى اجراء توضيح موجز وسريع لبناء النظرية اساسا ، ثم تفاعل هذا البناء النظرى مع العناصر الاخرى المكونة للعلم كنسق ادراكى يهدف الى فهم الواقع فهما منهجيا مقننا .

فالاتجاه الوظيفى لم ينشأ من فراغ ، بل شهد ميلاده مناخا فكريا سادته تيارات وافكار متعارضة.حيث كان ذلكفىالقرن الثامن والتاسع عشر ، حينما وجدت الوضعية التى لها صلتها بالمنهج العلمى الاستقرائى وكذا بالفلسفة الامبيريقية الانجليزية ، هذا بالاضافة الى الافكار أو الفلسفات المثالية حيث نجد الهيجلية ، ثم الماركسية كتولد مثالى أكثر ارتباطا بالواقع . هذا بالاضافة الى طراز من الفكر كان أكثر نقلا للواقع وتصويرا له ، بحيث وفر هذا الطراز من الفكر كافة المعطيات التى استعانت بها هذه المواقف الفكرية السابقة فى تبريرها لموقفها واثباتها لصدقه . تمثل هذا الطراز فى الفكر الانثروبولوجى الذى داب على دراسة المجتمعات البدائية ، سواء حاول ترتيبها فى سـلم تطورى وفقا لمحكات ارتضاها الباحث الأنثروبولوجى أو كان لسمـات تنتشر من مراكز حضارية لكى تسود فى مجتمعات على قرب أو بعد من مركز الانطلاق الحضارى لهذه السمـة حيث تمثل ذلك فى المدارس الانثروبولوجية المختلفة سواء كانت التطورية أو الانتشارية أو النفسية .

وبتوفر هذه العناصر المختلفة . كان طبيعيا ان يقود اختلافها وتباينها الى بحثها عن التحدد . وقاد التحدد الى الانفصال والتميز ، ثم الى التناقض.

وبدأ كل اتجاه فكرى يبحث عن عناصر القوة التى يدعم بها موقفه . والغريب ان كليهما سواء كانت الوضعية او المثالية الهيجلية كانت ام الماركسية ، لجأ الى المعطيات الانثربولوجية لو عم موقفها أمام الموقف الضاو . لان كل من هذه المواقف كان يؤكد على جوانب معينة من الواقع ، فانه كان طبيعيا ان يحدث سعى تلقائى الى التقاء العناصر المتضادة فى صياغة عناصر متولدة أكثر اكتمالا وأكثر قدرة دائما من العناصر السابقة على تطوير تصور متكامل لهذا الواقع . ومن هنا كان ضروريا ان نعرض فى هذا الفصل أهم الاتجاهات الفكرية التى استقت منها الوظيفية بعض قضاياها ومقولاتها النظرية . او تلك الى المعطيات الانثربولوجيا لو عم موقفها أمام الموقف الضاد . لان كل من للفكر المثالى الهيجلى . وكذا الوضعية مع ابراز نقاط الالتقـــــاء والافتراق بينهما .

الا ان هذه المواقف الفكرية المتباينة والمرتكزة على ركائز أو عناصر فكرية محددة ، طورت وجهة نظر محددة ايضا للواقع الذى جردت عنه . لمـــا هو كائن وما ينبغى ان يكون . وبدات تكتسب وظيفة جديدة . فبدلا من كونها عناصر علمية تهدف الى دراسة الواقع وفهمه كوظيفة اساسية ، بالتوفر على ما هو كائن ، انحرفت الى اكتساب وظيفة جديدة من حيث استخدامها كمدافع أو كمدين لواقع معين . وانتقلت من كونها عناصر تمثل اسس بناء علمى ، الى كونها ايدلوجيا لفئات أو أقسام مجتمعية متضادة . ومنذ ذلك الحين قامت ايدلوجيات متضادة استفادت حقا من قضايا نظرية علم الاجتماع فى دعمها لموقفها ، لكن هل ادت هذه الايدلوجيات الى تطوير نظريات أو عناصر علمية معينة أو حتى توفير المناخ لتطويرها . ذلك ايضا موضع بحث فى هذا الفصل .

اذن فقيمة هذا الفصل تمكن فى اننا سنحاول فيه استجلاء بعض النقاط التى سوف تشكل مسارنا فى انجازنا لهذا البحث أو تساعدنا فى شق هـــذا المسار . فهو يركز اساسا على توضيح الوسائل ، وهو يركز ايضا على تحديد الموقف النظرى لهذه الدراسة . بذلك نجد انفسنا أمام تحديد أهم الموضوعات التى سنعالجها فى هذا الفصل .

١ ــ النظرية بناؤها ونموها وتفاعلها مع المعطيات الامبيريقية .

٢ ــ اهم الاتجاهات الفكرية التى سادت الفكر الاجتماعى فى القرنين الثامن والتاسع عشر .

٣ ــ الايدلوجيا وعلاقتها بالنظرية الاجتماعية .

اولا : النظرية ، بناؤها وعلاقتها بالواقع :

ظهر علم الاجتماع الى الوجود كتعبير عن امتــداد المنهج العلمى الى العالم الاجتماعى للانسان ، حيث قامت خلال السنوات الاولى من القرن التاسع عشر محاولات منظمة لتطوير علم للمجتمع وادت الى ظهور علم الاجتماع كمنظور جديد ومحدد . ثم سعيه للافتراق عن الفلسفة ، والتاريخ،والاقتصاد السياسى ، والعلوم الاجتماعية الاخرى . ومنذ ذلك التاريخ بدأ سعى علــم الاجتماع نحو تحقيق هوية متميزة ومحددة . ذلك قاده الى تطوير عديد مــن النظريات حول طبيعة المجتمع والانساق الاجتماعية ، ثم تطوير منهجية خاصة وملائمة لدراستها .

ولقد عاصرت الولادة الفكرية لعلم الاجتماع نظم عقلية اخرى ، كالطبيعة والكيمياء والبيلوجيا ، والرياضة ، وكانت بمثابة الامثلة الناضجة التى على العلم الاجتماعى ان يحتذيها اذا ما اراد امتلاك نفس قدرتها وكفاءتها فى تناولها لمعطياتها . ونظر علم الاجتماع موجد ان هذه العلوم تمتلك نظريات ومنهجية خاصة تستعين بها فى تناولها لهذه المعطيات . وذلك لان العلم ليست مهمته الوصف الدقيق لمعطيات الواقع أو دعوة الحقائق تتحدث عن نفسها كما تذهب النزعة الامبيريقية التى تعتبر ذلك هو المسلك الملائم لعلم الاجتماع (تيماشيف ١٩٧٠ ، ص ٣) ، ولكن العلم يصف ويحلل ويفسر هذا الواقع تمهيداً للتنبؤ بطبيعة تفاعله الذى لم يتولد بعد . واستوجب ذلك الاهتمام بمحكات العلوم السابقة فى العمر لعلم الاجتماع ، تلك المحكات التى تستعين بها فى انجازها لوظائفها العلمية . وهى كما اشرنا النظرية ، والمنهج ، وادوات أو وسائل تناول المعطيات .

ولان الادوات المنهجيـــة والمنهـــج ، وحدتان وفرهمـــا المنهج العلمى فى العلوم الطبيعية ، لأنهما على مايؤكد ميرتون لاتختلفان كثيرا بين نطاقات العلوم المختلفة (Merton, 1962, P. 34) . أما عن النظرية فلابـــــد وان يـــــكرس علم الاجتماع جهده لبنائها . وظهرت معادلة دائمة الوقوع ، انه كلما نضج علم الاجتماع كلما تزايدت أهمية النظرية وضرورتها . ذلك لان المصطلحات والمفهومات النظرية تلعب دورا أساسيا فى توجيه البحث والملاحظة وترشيد الوصف نفسه سواء كان هذا الدور بارزا أو ضمنيا ، الا ان جميع العلماء يتفقون الان على وجـــــوب بروز دور النظرية فى توجيه البحث وقيادته . (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٣) .

وبهذا الادراك لدور النظرية عاصرت الفترة التالية لقيام علم الاجتمـــاع موجة تهافت على بناء النظرية.فقامت كثير من النظريات المتصارعة. الا أن هـــــذه النظريات كانت أشبه بوجهات النظر أو الفلسفات الخاصة لسببين . السبب الاول أنها تستند فى تصـــورها للواقـــع على أى من الجوانب أو العوامل المكونة لهذا الواقع . حيث بناء على هذا الجانب أو العامل واستنادا مرجعيا له كانت تصف وتحلل وتفسر هذا الواقع . أما العوامل التى تبنتها هذه الكيانات النظرية فقد كانت العوامـــل الاقتصـــادية ، والجغرافيـــة ، والسلالية ، والبيلوجية . ومع الاعتراف الكامل بزيف هذه النظريات وعـــدم استحقاقها لاية صفة علمية ، الا انه من وجهة نظر نسق التفكير العلمى ، ادت هذه النظريات ـــ بتركيزها على عوامل متباينة ـــ دورا هاما لنظرية علم الاجتماع (Sorokin, 1928) ※

أما السبب الثانى الذى يلغى علمية هذه النظريات فيكمن فى عـــدم اقتدارها على تطوير منهجية خاصة قادرة وموضوعية لتناول الواقع ، بـــل ظلت معظمها عند مستوى التفكير المكتبى الذى قد ينتقى من المعطيات ، خاصة تلك التى وفرتها الانثروبولوجيا ، ما تدعم به قضية صاغها المؤلف بصـــورة مسبقة .

※ اذ يعد هذا المؤلف من افضل المؤلفات التى عرضت لهذه النظريات العاملية ، حيث أوضح فيه طبيعتها وتميزها عن بعضها البعض بصورة واضحة ودقيقة وشامله .

فاذا ميزت هذه العوامل والنظريات المفضلة لاى منها احدى مراحل نمو نظرية علم الاجتماع ، وهى ما تعرف بمرحلة النظريات الخاصة أو العاملية، تلك التى كانت اكثر ارتباطا بشخصية المؤلف واكثر تعبيرا عن وجهة نظره الخاصة . نجد أن هذه المرحلة انتقلت الى مرحلة تالية حيث تألفت كيانات نظرية لا تتبع وجهات النظر الخاصة للمؤلف ولكن يتبع المؤلف أو العالم وجهة نظرها ، أعنى توفرت الى حد ما بعض الكيانات النظرية التى اسهم التراكم الفكرى فى تطويرها ، وتكاملها وتماسكها،كقيام الماركسية أو البنائية الوظيفية، أو السلوكية ، أو نظريات الفعل وبدأت هذه النظريات كانساق نظرية تخضع لنوع من التنقيح والتطوير الذاتى ، يقوم به رواد هذه النظرية اما بتلاقى عيوب عدم الاتساق المنطقى بين مقولاتها أو قضاياها واما بدعمها وتطويرها عن طريق الدراسات الميدانية . ولعل افضل تسمية لهذه المرحلة ان تسمى بفترة المدارس السوسيولوجية . حيث احتوت كل مدرسة على عدد من النظريات الخاصة المتجانسة والتى تستوحى المقولات أو القضايا العامة للمدرسة فى صياغتها لنظرياتها الخاصة .

وبينما كانت المرحلة السابقة . تشهد نظريات متصارعة فيما بينها ، شهدت هذه المرحلة صراعا ليس بنفس الصراع السابق (تيماشيف ، مرجع سابق . ص ١٦) . ذلك لان الكيانات النظرية بدأت فى فرض وصياغة تصورها للمجتمع ولطبيعة تفاعله ليس عن طريق نقد النظريات الاخرى ، بل عن طريق التطوير الذاتى لكى تصل الى درجة من التكامل الذى تتضح ملامحه فى تواجد نوع من الاتساق المنطقى لبنائها ، وأيضا فى توفر قدرة أكثر كفاءة على تناول معطيات الواقع بالدراسة ، يشهد على ذلك الفارق بين وظيفية اميل دوركيم ووظيفية ميرتون على سبيل المثال . أو الماركسية الارثوكسية وفكر اليسار الجديد كتصور نظرى منقح عن هذا النموذج النظرى الام .

يبد أننا اذا قلنا ان النظرية ابنة التراث العلمى المتراكم والمنقح لذاته ، وكذا المعطيات الامبيريقية التى تشكل نطاق عمل ومصدر نمو هذا التراث العلمى فانه يصبح قولا يجانبه الصواب . ذلك لان هذين العنصرين ليس

كافيا لصياغة نظرية علمية . اذ ان النظرية تعد الوحدة المعرفية الوحيدة فى نسق التفكير العلمى التى لا تخضع صياغتها للتنظيم او التنظمة . فهى لا تستقى من الملاحظات والتعميمات عن طريق استخدام وسائل الاستقراء المضبوطة والدقيقة . ذلك لان بناء النظرية يعد انجازا خلاقا ، ومن هنا فان الامر لايدعو الى الدهشة حين نجد نفرا قليلا من المشتغلين فى ميدان علمى معين هم القادرون على القيام بمثل هذا العمل . فهناك دائما قفز فوق الادلة، واحساس خفى متصل بالجهد الخلاق (المرجع السابق ، ص ١٥) . ذلك لان صياغة النظرية شىء يشبه انجـاز العمل الفنى ، ومن هنـا كانت منهجية النظرية وصياغة النظرية متخلفة بالنسبة لمنهجية الفروض وصـياغة الفروض .. وانه يبدو ان نوعى الفلاسفة والعلماء اللذين يعملان على هذين المستويين مختلفان كيفيا (Galtung, 1967, P. 451) .

غير اننا اذا اكدنا ان النظرية ابتكار لفئة محدودة من العلماء توفـرت لديها القدرة لذلك ، فان هذا لا يتضمن ان تعتبر النظرية كلوحة فنية مثـلا أو كوجهة نظر فلسفية ، تعكس وجهة نظر مبتكرها فحسب . ذلك لان النظرية العلمية ليست خلقا مطلقا وكاملا للعالم القائل بها ، وانما هى امتداد سلبى (اعنى نقدى) أو ايجابى للتراث الفكرى النوعى المرتبطة به . وان العالـم الذى يبدو ظاهريا انه ابتكرها لم يفعل الى أن عبر عنها ووضـع يده على خطوط امتدادها من داخل النظام العقلى ذاته ؛ ذلك يتضح اذا جاز لنا أن نتصور ان العلم كنسق تطرح عليه دائما متغيرات جديدة اما من داخل التراث الفكرى عن طريق بروز ثغرات فى الاتساق المنطقى ، أو مصدرها الواقع الذى طرح ما هو جديد من المتغيرات . هنا يجد العلم نفسه أمام ضرورة الامتداد من أجل استيعاب هذه المتغيرات الجديدة . هذا الامتداد دائما ما يكـون ابتكار النظرية الجديدة الذى يقوم به باحث ما توفرت له قدرة وحساسية لمتطلبات النسق الفكرى الذى يشكل تخصصه فى هذه المرحلة ، ثم قدرة وكفاءة على البحث عما يشبع هذه المتطلبات أو الاحتياجات النسقية .

من هنا كان على العلم ضمانا لنموه المطرد والمتسق ان يطرح عـديدا من المحكات التى تقاس على اساسها كفاءة النظرية ، بحيث اذا ما توفرت

محكات الكفاءة هذه دشنت النظرية كنظرية علمية . ومن هـذه المحكات او الشروط . نذكر الآتى : **اولا** : ينبغى ان تكون المفهومات التى تعبر عن القضايا محددة بدقة . **وثانيا** : يجب ان تتسق القضايا الواحدة مع الاخرى . **وثالثا** : ان توضع فى شكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات القائمـة اشـتقاقا استنباطيا . **ورابعا** : ان تكون هذه القضايا خصبة ومثمرة ، تسـتكشف الطريق لملاحظات ابعد مدى ، وتعميمات تنمى مجال المعرفة (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ١٥) .

ويتضح من النظرة السريعة الى المحكمات الاربعة لكفاءة النظرية انها تضم مصطلحات مثل النظرية والمفهومات ، والقضايا ، واتساق القضايا ، والشكل الميسر للاشتقاق ، والاستنباط . فكيف اذن تنتظم هذه المصطلحات او الوحدات فى بناء النظرية ؟

ويساعدنا تحديد أو تعريف النظرية على ابراز الشكل الذى تنتظم فيه هذه المصطلحات . اذ انه وفقا لما يؤكد ميرتون ان كلمة النظرية من الكلمات التى تهدد بأن تفقد معناها ، بل وان تصبح خلـوا من أى معنى . ذلك لان المعانى الكثيرة التى تنطبق عليها الكلمة ، تمنع أكثر مما توفر الفهم ... ومن وجهة نظره يؤكد ان مصطلح النظرية الاجتماعية يشير الى التصورات المترابطة منطقيا ، تلك التصورات المحدودة والمتواضعة فى نطاقها وليست تلك الشاملة والمحتويـة لـكل شىء (Merton, op, cit, P. 5) . ثـم يؤكـد فى موضع اخر انه حينما تترابط المفاهيم فقط ، فى شكل اطار أو مشروع فان النظريـة تبدأ فى الظهور . وحينئذ ، فان المفاهيم تكون التعريفات (التشخيصات أو التحديدات) لما يجب أن يلاحظ ، انها تصبح المتغيرات التى يجب أن يبحث بينها عن العلاقات الامبيريقية المتبادلة ، وحينما تترابط أو تتداخل القضايا منطقيـا فـان النظريـة تتـكون (ibid, P. 89) ، بينما نجـد ان بارسونز يؤكد ان تعريف النظرية يتصل بكيان من المفاهيم العامة المترابطـة منطقيا الا انه لاينفى ان هناك أيضا مجموعة من القضايا العامة ذات العلاقات المنطقية التى تؤلف كيان النظرية . وان قضايا النسق النظرى يجـب أن

تكون لها مراجعها المتصلة بالحقائق التجريبية أو الامبيريقية (Parsons, 1937, P. 28) . هذا بالاضافة الى ان براثوايت يعرف النسق النظرى بانه مجموعة من القضايا التى تتخذ ترتيبا خاصا فى النسق بحيث تكون مترابطة منطقيا ومتميزة بالتدرج المنظم غير المتناقض . وتشير القضايا العامة فى النظرية الى المقدمات ، أما القضايا المستنبطة فتمثل النتائج .
(Seltiz & Others, 1963, P. 80)

من جملة هذه التعريفات يتضح ان تحليلها يحدد الوحدات الاساسية كما يلى : فهناك المفاهيم ، هذه المفاهيم لابد وان تكون مترابطة . وهناك القضايا ، هذه القضايا لابد وان تكون مترابطة ومتسقة منطقيا ومتدرجة هذا الى جانب ان الكيان النظرى بكامله ، يجب ان تكون له اسناداته الامبيريقية .

فما هى المفاهيم اذن ؟ المفهوم كما يعرفه ماكليلاند تمثيل مختصرا لمجموعة من الحقائق (Ibid, P. 41) بمعنى ان مفاهيم علم الاجتماع هى رموز لفظية مميزة تعطى لافكار معممة تم تجريدها عن الملاحظة العلمية للمجتمع (Fairchild, 1967, P. 56) اذن فالوظيفة الاساسية للمفهوم انه يجرد الواقع تحت رمز معين . واعنى بالتجريد أنه يفصل الظاهرة من الارتباطات الاخرى التى لا يحتاجها العلم . اذ يقوم الباحث بتجريد الحقائق المناسبة من المركب الكلى للظاهرة (Riley, 1963, P. 5) ويساعد المفهوم على تحديد المعطيات التى تندرج تحته ، بحيث يساعد على التقليل من امكانية احتواء أية بيانات امبيريقية زائفة (Merton, op, cit, P. 90) ، هذا الى جانب الغاء امكانية التناقض بين المعطيات التى يغطيها هذا المفهوم اذا كان صارم التحديد ، بالاضافة الى أنه يحدد الاستجابة له اذا طرح فى موقف معين . وهناك أنواع من المفاهيم . المفاهيم الوصفية ، والاجرائية ، ثم المفاهيم التى تعبر عن متغيرات كما أشار ميرتون الى ذلك .

فاذا طور الباحث مفاهيم معينة ، أو طورت نظرية معينة لبعض المفاهيم . فلابد من اجراء مراجعة مستمرة حتى لا يتخلف المفهوم عن رمزه الى حقائق .

محددة بالواقع . اذ قد تتغير معانى المفاهيم نتجة للتراكم العلمى . فمفهوم التطور الذى استخدمه الرعيل الاول من علماء الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع ليس نفسه الذى يستخدمه العلماء المحدثون من أمثال جايلد ووايت . ويشير ايرتست ناجل فى مناقشته بناء العلم أن مفهوم الالكترون قد تغير معناه فى الفيزياء مع نمو هذا العلم ، بل أن مفهوم الجريمة كانت له نتائج خطيرة بعد أن عدله ادوين ساذرلند بحيث اسهم ذلك فى خلق نظرية جرائم اصحاب الياقات البيضاء . (Ibid, PP. 91-92)

أما القضية Proposition فتعرف على انها تعبير عن الواقع الاجتماعى يتضمن مفهومين أو أكثر ويمكن اخضاعها للبحث العلمى . فالقضايا تعبر عن العلاقات بين المفاهيم ، وقد يشار الى القضية احيانا باعتبارها فرضا hypothesis أى تعميما مبدئيا يخضع للاختبار الامبيريقى للتعرف على صدقه أو خطئه ولذا فقد ينظر الى النظرية على انها مجموعة من الفروض . (Galtug, op, cit, P. 451) وتنقسم القضايا الى نوعين فى اى نسق نظرى ، القضايا العامة أو القضايا ذات النظام الاعلى ، أما الاقل عمومية فهى تلك التى يسميها بالقضايا ذات النظام الادنى أو القضايا الامبيريقية ، ومن المهم القول ان القضايا ذات النظام الادنى تشتق من القضايا العليا تحت شروط معينة (Homans, 1966, P. 951) وهذا يتضح من تعريف برائوايت للنظرية حيث يقسم قضاياها الى قضايا عامة ويعتبرها مقدمات ، أما القضايا الناتجة عنها أو المشتقة منها فهى مستنبطات ، تأكيدا على العلاقات المنطقية القائمة بين قضايا النسق النظرى بحيث لا يمكن ان يكون هناك ثمة تناقض فيما بينها . بل يمكن ان نصوغ تصنيفا مترادفا للتصنيف السابق الى حد ما على أساس ان هناك قضايا بسيطة وقضايا مركبة .

أما عن الاتساق المنطقى فهو كما اشرنا يعبر عن الصياغة البنائية لمقولات النظرية أو مقولاتها فى بناء يمتلك قدرا من الاتساق الذى لا يولد اى تناقض بين مكوناته ، بحيث يجب ان ينص الاتساق المنطقى على تسلسل هذه القضايا بحيث يصبح كل مستوى ادنى مشتق من المستوى الاعلى ، وبحيث تسلم اى تعديلات فى قضايا المستوى الادنى بناء على البحث الامبيريقى الى تعديلات مترددة فى قضايا المستويات الاعلى .

الا اننا اذا كنا قد انجزنا توضيحا لاهم المصطلحات المكونة للنظريات فاننا نرى من الضرورى صياغة مفارقة بين النظرية وبعض الكيانات النظرية التى قد تختلط بها او تتداخل معها ، مثل النموذج Model والنموذج التحليلى Paradigm والاطار التصورى Conceptual Scheme

أما النموذج فيعرف ببساطة على انه جهاز تصورى يحدد انه اذا ما ترابطت مجموعة من العوامل المحددة بطريقة محددة ، فان ناتجا معينا يصبح متوقعا . وبمعنى ما فالنموذج ليس أكثر من تفسير . ولكنه يختلف عن التفسيرات المتعلقة بموضوعات خاصة فى كونه منظما أو مصوغا فى مصطلحات أكثر وضوحا وصورية وعمومية (Smelser, 1968, P. 209) . ويصاغ النموذج فى حالة غياب النظرية أو عدم توفرها فيما يتعلق بنطاق امبيريقى معين . ومن هنا تعد النماذج استراحة وسط الطريق الموصل الى بناء النظرية . اذ انها عباة عن تشخيصات أو تحديداتمؤقتة لماهية النسق. ثم انها قد تفترض علاقات معينة بين المتغيرات من أجل اجراء البحث الامبيريقى (Catgrove, 1968, PP. 31-32) . وتعد النماذج مساعدات اساسية فى عملية التحليل . أما البرهنة على زيفها فليس بذات أهمية . أما ما هو هام فهو انها تمدنا بالتقديرات المبدئية التى يمكن ان نختبرها ، ومنها يمكن ان نصوغ النظريات ذات القيمة التفسيرية الاقوى . ان حقيقة ان نموذج نلس بور Neils Bohr عن الذرة (النيترون والالكترونات فى المدارات) لم يوافق عليها من زمن بعيد بواسطة علم الطبيعة الحديثة لم يقلل من حقيقة انه كان خطوة هامة ذات طاقة هائلة نحو توليد نظرية وبحث أكثر (Ibid, P. 32)

أما فيما يتعلق بالاطار التصورى والنموذج التحليلى ، فهما يحتويان على نفس الوحدات الا انهما يختلفان من حيث الغرض . فبينما نجد ان الاطار التصورى هو عبارة عن نسق المفاهيم التى يختارها الباحث ارادياً لكى يحدد نطاق تفسيره وحصره للمتغيرات ، حيث يتكون من مجموعة من المفاهيم التى تتسق وتترابط فيما بينها ترابطا واتساقا منطقيا . وهو يختلف عن النموذج من حيث كونه يحتوى على مفاهيم أكثر من المتغايرات التى يحتوى عليها النموذج

بل ان الاطار التصورى قد يكون ذاته النظرية لكن على المستوى التصورى ، والمثال الواضح الذى يترادف فيه الاطار التصورى مع النظرية ومع الاطار المرجعى يتضح من الاستخدام البارسونزى له . أما النموذج التحليلى فهو تشكيل اطار من المفاهيم ، قد يكون هو ذاته الاطار التصورى لكن الفارق بينهما يكمن فى ان النموذج التحليلى يصوغه الباحث لكى يستخدمه فى التناول الاجرائى والتحليلى لمعطيات الواقع ، وهو يعمل على ما يؤكد ميرتون على منع الاستظراد اللغوى ، وايضا عدم الاحتواء على مفاهيم ضمنية ، كذا فهو يشكل أساسا تبنى عليه التفسيرات التالية ومن ثم فهو يساعد على تراكم المعرفة . ثم انه يقترب بالتحليل الكيفى من دقة التحليل الكمى (Merton, op,cit, PP. 13-15) . هذا مع التأكيد على ان النموذج ، والنموذج التحليلى ، والاطار التصورى هى كلها كيانات نلجأ اليها فى حالة غياب النظرية أو نقصها وعدم استيعابها لكافة متغيرات الواقع . ثم هى أيضا تعتبر المسالك الثلاثة الموصلة الى بناء النظرية .

بقى ان نوضح فى هذا المجال قضية هامة ، وهى التى تعبر عن ذلك الحوار بين النظرية والواقع ، اعنى محاولة تصوير نتيجة التفاعل بين الواقع والنظرية ، ذلك التفاعل الذى يكون من نتائجه زيادة قدرة وكفاءة النظرية على تناول واستيعاب متغيرات هذا الواقع . ولكى نوضح ذلك فاننا نؤكد انه بمجرد ان يصوغ باحث ما نظرية او تنبثق النظرية من داخل التراث الفكرى. فانها تصبح حتى لحظة ظهورها مصورة للواقع ومجردة لمتغيراته التى تدخل فى نطاقها . ولذلك فهى حتى هذه المرحلة يسودها نوع من الاتساق وتتوفر لها قدرة وكفاءة على تناول الواقع بالوصف والتحليل والتفسير . الا ان الواقع — خاصة الواقع الاجتماعى — ليس ثابتا ، ومن ثم نجد ان النظرية يبرز قصورها بعد فترة بسبب عوامل أساسها مصدرين . الاول : هو التراكم الفكرى الذى تتوفر له معطيات أكثر لم تكن متيسرة حين بناء النظرية مما يؤدى الى الكشف عن قصور فى كفاءة النظرية أو عن تناقض فى اتساقها المنطقى . فى هذه اللحظة تصبح النظرية معيبه . أما المصدر الثانى ، فهو ان الواقع ذاته قد يطرح من المتغيرات ما هو جديد لم تطور النظرية له مكانا فى

بنائها . وأمام هذه المتغيرات الجديدة تصبح النظرية قاصرة عن تناول هذا الواقع — مثل عدم قيام البروليتاريا فى الولايات المتحدة بالثورة الاشتراكية نظرا لان البناء الاجتماعى طرح ميكانيزمات أو متغيرات جديدة حالت دون تحقيق هذه النبوءة — ويصبح نتيجة للقصور الذى تعانيه النظرية بسبب هذين العاملين ، ان تتحول النظرية الى نموذج مرة اخرى بالنظر الى متغيرات الواقع . اعنى انها تصبح متناوله لبعض متغيراته فقط . ثم تبدأ عملية صياغة النماذج التى تحتوى على متغيرات حتى تتمكن من نظرية جديدة اكثر تطورا واستيعابا لكافة تفاعلات هذا الواقع ، بحيث انها تظل لفترة قادرة حتى يأتيها ما هو جديد ليثبت قصورها ويحيلها الى مجرد نموذج مرة اخرى . فمثلا حركة اليسار الجديد استبدلت امكانية ان تقوم جماعات الشباب فى المجتمع الامريكى بالثورة بدلا من طبقة البروليتاريا .

يبقى بعد ذلك ان نوضح علاقة النظرية بالبحث الاجتماعى . ذلك لان النظرية تساعد الباحث على لمس المتغيرات او العناصر الهامة فى نطاق دراسته. وتبدو اهمية النظرية وفقا لما يؤكد تالكوت بارسونز من فشل النزعة الامبيريقية الى الان وعدم قدرتها على صياغة تراكم معرفى بالرغم من كثرة الابحاث التى انجزتها هذه النزعة ، ولا يرجع ذلك الى قصور فى أدواتها المنهجية وانما الى افتقادها للبناء النظرى الموجه (Parsons, 1966, P. 350) النظرية تساعد فى توفير اطار عام متسق وموجه للبحث ، كذا فهى توفر اللغة المشتركة للاتصال بين مختلف الباحثين . تساعد على كشف الثغرات فى المعرفة تلك التى تحتاج الى بحوث لاستكمالها ، هذا بالاضافة الى كونها تشكل اطارا منظما تشتق منه قضايا البحث وفروضه Ibid, P. 354)

بيد انه بالرغم من أهمية النظرية هذه بالنسبة للبحث ، الا ان هذا الاخير هام بنفس القدر بالنسبة للنظرية . ذلك كان ادعى للتلاحم بينهما . الا ان الواقع غالبا ما شهد بغير ذلك . ذلك لانه غالبا ما كان يحدث انشقاق غير مثمر فى عملية البحث ، بحيث يعكس هذا الشقاق ذلك التضاد الذى يفترض خطأ وجوده بين النظرية والبحث ، اذ نجد اصحاب الاتجاه الامبيريقى فى علم الاجتماع يصرون على ان المشاهدة الحسية تعد مصدرا نهائيا ومطلقا للمعرفة

بالظواهر الاجتماعية ، أما الافكار المنطقية أو التصورية فهى نسخ عقلية للاشياء المادية (*) . وفى ذلك انكار للوظيفة المنهجية التى تؤديها الافكار والتصورات العقلية فى عملية البحث . . بينما على الطرف الاخر أيضا انصار الاتجاه العقلى الذين يتخذون من العقل اساسا نهائيا ومطلقا للمعرفة ولهذا فان الوقائع وهى بعيدة عن الافكار العقلية تافهة ، لا تكتسب هذه الوقائع المشاهدة فى الواقع الاجتماعى دلالتها الا حينما تكون على صلة بالافكار العقلية (محمد عارف ، ١٩٧١ ، ص ٢٥٩)(**) . والحق أن هذا يمثل قصورا فى الادراك المتكامل عند كل من الاتجاهين لطبيعة وعملية البحث . ذلك لانهما كعنصرين فى نسق الادراك العلمى يتفاعلان ويتبادلان التأثير ، ذلك التبادل الذى غالبا ما يكون على غرار حلقة التغذية المرجعية . فلم تعد النظرية تلك الاتساق الفلسفية أو النظرية ، ولكنها فى المرحلة المعاصرة أصبحت أكثر ارتباطا بالملاحظة ، وانها غالبا ما تنمو وتتطور بنمو المعرفة على نحو ما أو ضحنا . ونستطيع ان نؤكد ان من أهم وظائف النظرية هو تلخيص المعرفة الموجودة لتقديم التفسير المناسب للوقائع أو الظواهر الخاصة للملاحظة والتنبؤ بمستقبلها . هذا بالاضافة الى توفيرها للتوجيه الملائم للبحث بحيث تدفع البحث دائما الى المسالك أو المجالات المثمرة . وتصور (رلى) العلاقة بين النظرية والبحث بقولها ان الباحث الذى يبدأ بنظرية يكمل الدائرة فى الجانب أو المرحلة التفسيرية للبيانات واضعا الحقائق الجديدة فى نسيج افكاره ، ومن ثم فان البحث يعيد من خلال نتائجه بناء النظرية وتنقيح مكوناتها واثارة فروض أو قضايا جديدة ، هذا بالاضافة الى فتح المجال لظهور تكوينات

(*) أكد على هذا الموقف فلاسفة النزعة الانجليزية حيث اعتبرت ان دور العقل ما هو الا منظم للحقائق التى ترد اليه من الواقع ولذلك اسندوا له دورا سلبيا . منهم نذكر هيوم وبركلى . ولقد كانت هذه النزعة أكثر ارتباطا بالوضعية ، وذات اتصال مع كافة الافكار التى تدعو الى النظام والتوازن والاستقرار .

(**) حمل لواء هذا الاتجاه العقلى الفلاسفة المثاليون أو الذى لهم أصول مثالية ، مثل هيجل ، وماركس ، وماكس فيبر ، والسمة المميزة لهذا الاتجاه انهم يطلبون من الواقع دائما ان يتطابق والتصور الذى يطوره العقل لهذا الواقع . من هنا فهو غالبا ما كان يركز على ما يجب ان يكون لا ما هو كائن . ومن ثم فقد شكلت الاساس المعرفي والنظرى لقيام نظريات التغير الاجتماعى لعدم رضائها عن التنظيم الكائن بالواقع . بل كان هذا الاتجاه أكثر الاتجاهات العقلية امتلاء بالتصورات انبوتوبية والطوباوية .

نظرية جديدة بدلا من النظريات التى لم تثبت فائدتها (كريم حمزة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٧٤ — ٩٤) .

موجز ما سبق اننا نرى ان النظرية اذا كانت تتكون من بعض القضايا او المقولات ، التى تترابط فيما بينها ، ويسودها نوع من الاتساق المنطقى فان هذا الاتساق المنطقى اذا انغلق على نفسه ، فانه يتحول الى وجهة نظر تخلفت عن ان تساير حركة الواقع وتفاعله . ومن هنا ، فان النظرية يجب دائما ان تكون لها جذورها الحية بأرض الواقع اذا اريد لها ان تحقق كفاءة وقدرة على ما يؤكد س . رايت ميلز . وان هذا الانفصال بين النظرية والبحث اصبح شيئا متحفيا ، وان المنظر والباحث قد اجتمعا فى شخص واحد . وذلك فى حد ذاته فتح علمى جديد .

وفى هذا الصدد نذهب الى اننا اذا اردنا بحثا علميا جادا ، فلابد وان يوجـــه هذا البحث نظرية ما . اننا بهذا الاجراء نحقق مطلبا يسعى اليه علم الاجتماع جاهدا ، وهو الموضوعية ، ذلك لانه وفقا لما يؤكد تالكوت بارسونز انه قد كثر الجدل والحوار فى علم الاجتماع حول مسائل كالموضوعية ، والتحيز القيمى للباحث ، واننا اذا اردنا ان نحسم فى هذه المسائل فان علينا ان نؤكد على ضرورة ان تقاد ابحاثنا واستطلاعتنا الامبيريقية بنظرية ما . ان النظرية بذلك تمثل المنظار الذى يكشف بالضوء عناصر الموقف البارزة التى يجب ان يضع الباحث عليها يديه .

الا اننا قد نتساءل كيف تحقق النظرية مسائل جاهد البحث الاجتماعى كى يحقق فيها تقدما ، كتحقق خاصية الموضوعية والغاء التحيز القيمى ، مع ان الباحث فى التزامه بنظرية معينة انما هو اختيار لوجهة نظر قد تكـــون متحيزة منذ البداية .

الحق ان الامر غير ذلك . فان النظرية السوسيولوجية ، سواء كانت بنائية وظيفية ، او مادية تاريخية ، انما هى اولا واخيرا منظورات طورها تراث علم الاجتماع . فاذا اختار الباحث منذ البداية فى دراسته الحقلية وأكـــد التزامه الميدانى بنظرية معينة . فان ذلك سوف يمهد الطريق لتقويم دراسة

هذا الباحث تقويما نقديا تتوفر له كافة عناصر السلامة المنطقية والمعقولية. ويصبح بامكاننا ان نقومه نقدبا على اساس المحكات التالية .

١ ــ مدى ملاءمة النظرية التى اختار الباحث الالتزام بهـا سواء فى اشتقاقه لفروضه او سواء فى انجازه لمسلكه المنهجى لدراسة هذه الفروض ، واعنى بذلك أنه اذا اراد باحث دراسة مجتمع صحراوى منعزل أو احدى الواحات الصحراوية أو المجتمعات البدائية ، أو المجتمعات المحلية المنعزلة داخـــل مجتمع عام ، واستخدم أو التزم فى دراسته بالنظرية المادية التاريخية يكون قد اخفق منذ البداية فى اختياره للالتزام النظرى . ذلك لان هذه المجتمعات لم تتحقق فيها المقولات التصورية للنموذج الماركسى ، هذه المقولات التى كانت تجريدا اساسيا لوقائع امبيريقية تاريخية أو متزامنة لمجتمعات شاملة تملك تاريخا ووثائق مكتوبة ، وشـهد بنائها تباينا وتعقدا وصراعا بنائيا معينا .

٢ ــ اما المحك الثانى لتقويم الدراسة التى قام بها هذا الباحث فيتضح من اننا اذا اتفقنا على نجاح الباحث فى اختياره للنظرية التى ستوجه بحثه الميدانى فاننا نحاول اجراء تقويم لمدى التزامه بالفروض التى يمكن ان تشتق من المقولات العامة للنظرية ، ثم ما هى الاجراءات المنهجية ومدى ســلامة انجاز الباحث لهذه الاجراءات التى تتطلبها دراسة هذه الفروض ، وكـذا الادوات المنهجية المستخدمة فى جمع المعطيات ومدى ملاءمتها للفروض المشتقة ولبناء النظرية ذاته .

٣ ــ اما المحك الثالث الذى نطرحه فهو تقويم قدرة الباحث الذى قـام بالدراسة بناء على التزامه بنظرية محددة ــ تلك التى اشتق منها فروضه ، واتبع وصاياها المنهجية ــ على تفسير النتائج التى توصلت اليها دراسته لفروضه ، من حيث مدى التزام هذا الباحث فى تفسيره بالمقولات او القضايا الاساسية للنظرية او النموذج الذى التزم به .

بهذه المحكات الثلاثة نترك الخيار امام الباحث لاختيار النظرية التى تلائم بحثه ، ثم نبدأ بناء على هذه المحكات فى الحكم النقدى والتقويمى على اختياره ومدى التزامه بهذا الاختيار . سيلغى ذلك التشيع الدينى الذى قد يسود بين الباحثين فى علم الاجتماع ويقسمهم الى وظيفيين أو ماركسيين ،

حيث يدعى كل منهم ان نظريته هى الوحيدة الاكثر ملاءمة لدراسة الوجود بكامله . وهو امر يتنافى مع الفرض العلمى الذى قامت هذه النظريات لتحقيقه ، ذلك ايضا سوف يقود نظرية علم الاجتماع الى مرحلة قادمة ، تتكامل — على اساس من التقنين — فيها قضاياه ، ويتخلق بينها نوع من الاتساق المنطقى الذى يعد اساسا صلبا تؤسس عليه نظرية سوسيولوجية عامة .

ثانيا : النظرية الاجتماعية : اصولها وطبيعتها

اشرنا فى القسم الاول الى ان نظرية علم الاجتماع نظرية نسقية اساسا لها حوار وتفاعل مع الواقع بحيث يهدف هذا الحوار الى تطوير قدرة الباحث على تناول هذا الواقع بالفحص والدراسة . معنى هذا ان النظرية تمثل جهدا لتفسير الظواهر الاجتماعة بنفس الاسلوب الذى فسرت به ظواهر العالم الفيزيقى بواسطة العلوم الطبيعية . حيث يحاول بها العلماء الاجتماعيون ان يدرسوا المجتمعات ، ويطوروا القضايا العامة حول اسباب الفعل فيها بنفس الاسلوب الذى حاول به علماء الطبيعة بعد نيوتن ان يفسروا به سلوك المادة غير العضوية او كما حاول علماء البيلوجيا بعد دارون تفسير سلوك الكائنات العضوية .

بيد ان هناك معنى آخر للنظرية الاجتماعية ، اذ يتعلق هذا المعنى اساسا بشكل المجتمع المثالى الذى يقف دائما على نقيض المجتمع الذى يعيشه المنظرون الاجتماعيون . اذ يؤكد هذا المعنى للنظرية على ان المنظر الاجتماعى على نقيض اخيه فى العلوم الطبيعية ، يتناول بالدراسة مجتمعا هو نفسه احد جزئياته ، يمسك بانبوبة الاختبار لكى يتفحص ما فيها ، وهو ذاته احد ذرات هذه المادة وداخل نفس هذه الانبوبة ويخضع لنفس حرارة التفاعل التى تتاثر بها . انه عضو فى المجتمع ، ويجب ان يشكل ذلك احد المصادر الاساسية لفهم المجتمع ، ولهذا السبب اصبح من المسلم به ان يدمج منظروا القرن التاسع عشر فى محاولتهم لتفسير الظواهر الاجتماعية آراء عن المجتمع الخير الأكثر سموا من المجتمع الكائن .

غير أن هناك معنى ثالثا للنظرية يتعلق بأنه ما دام أى مجتمع يبحث عن نوع من الاتفاق العام ، وان هذا الاتفاق اذا كان قد تحقق فى مجتمعات الماضى البدائية ، بوسائل كالعرف والتقاليد والعواطف الجمعية ، فان النظرية الاجتماعية قد حلت محل هذه الوسائل فى العصر الحديث . حيث شكلت الاساس الذى يرتكز عليه الاتفاق العام ، حيث يسلم بها عقائديا ، ولا تعرض ابدا لتفحص نقدى لأنها قضايا مسبقة يطلب الايمان بها والاتساق معها ، حتى تشكل مناخا للرأى أو أساسا لايديولوجيات شعبية شائعة . بذلك نجد انه اذا كان المعنى الاول والثانى يشكلان نطاق عمل العلماء الاجتماعيين ، فان المعنى الثالث يشكل أساسا للاعتقاد والفعل بين جماهير الشعب الغفيرة (Mackenzie, 1968, Pp. 185-186)

بيد ان هذه المعانى الثلاث للنظرية لم تنشأ فى فراغ ، وانما استندت الى ركائز معينة قامت عليها ، واستمرت هذه الركائز تؤتى ثمارها ، تارة فى طرح انواع عديدة لمعنى النظرية ، أو فى طرح وجهات نظر عديدة فيما يتعلق بدور النظرية ونطاق هذا الدور .

ذلك يرجع بنا الى الوراء الى القرن السابع عشر والثامن عشر ، أو عصر التنوير وكذا التيارات الفكرية التى سادت هذه الفترة كرد فعل ـ وان كنا متعسفين فى ذلك ـ للثورة الفرنسية والأحداث التى سادت أوربا فيما قبل الثورة . ذلك اننا نعرف أن هذه الثورة السياسية قامت بها البورجوازية ضد الطبقة الارستقراطية ، واطاحت بها ، وبنوع الحكم الملكى المستبد المطلق . ومن ثم فقد كان طبيعيا ان تحدث استجابة ورد فعل متباين من قبل الشرائح الاجتماعية المختلفة تجاه هذا الفعل الواحد الذى طرح تأثيرا متباينا عليها . ومن هنا وجدنا ثلاثة مواقف . موقف محافظ يتمسك بما هو قائم ويطلب عودة الامور الى ما كانت عليه لأن ما حدث خرق للقانون الالهى واطاحة بملك استمد حقه فى الحكم من الله . وموقف نقدى ثورى ، يؤكد ان قدر الانسان هو صانعه ، وان الانسان هو الذى يخلق تاريخه عن طريق الغاء كافة تناقضات الواقع الكائنة . لان الواقع ممتلىء دائما بالسلب ، وان الواقع يحمل دائما امكانية

المستقبل ، وعلينا ان نفتش عن امكانية مجتمع المستقبل الكامنة فى قلب التناقضات الكائنة عن طريق الغائها . وكان هذا الموقف يمثل تطرفا مضادا للموقف المحافظ المتطرف أيضا . الا ان هناك موقفا ثالثا نشأ ليؤكد اننـــا من الان فصاعدا علينا ان نتناول امورنا ليس بصورة عشوائية نعيش فى ظلها تارة تحت ملوك يستغلون واخرى تحت نير فيضان ثورى لا نعرف مداه ، اننا يجب ان نتناول امورنا بصورة منظمة ، اعنى بصورة منهجية تراعى ان الانسان يمتلك عقلا يفكر به الا انه يعيش واقعا يجب ان يأخذه هذا العقـــل فى اعتباره . فهو موقف لا يدين الملكية أو يبرر الثورية أو العكس ، وانما ينادى بالموضوعية . كان هذا الموقف هو موقف الوضعية .

على ان الواقع يؤكد ان ما كان ذو تأثير على أى فكر بشأن المجتمع كان موقفين وليست ثلاث مواقف . ذلك لأن الموقف الأول وهو الموقف المحافظ . الذى يطلب الرجوع بالمجتمع الى ما قبل الفوضى الثورية . يمثلة كثيرون مـــن أمثال ادموند بورك الذى عاب على الثوريين معاملة المجتمع كالاله ، ينزعون منها أى جزء ويضيفون آخـــر ، وهم فى نزعهم واضافتهم هذه يتصرفون وكأنهم اصحاب الحق المطلق فى هذا المجتمع . اننا نؤكد لهم ـــ اى للثوريين ـــ ان المجتمع ليس مجتمعهم الحاضر فقط والذى يحطمونة بفعلهم الثورى ، انـــه سلسلة لا نهاية لها من الاجيال ، يرث كل جيل ما سبقة ، وما هم الا احدى حلقات هذه السلسلة . من هنا فجيل الثورة ليس له الحق فى ان يحطم كل عادات ونظم لا تنتمى له لانه لم يخلقها ، ولكنها ترتبط بالاجيال السابقة وربما بالاجيال المستقبلة ، فليس هناك من اعطى الحق لستة وعشرين مليونا من الفرنسيين لان يعتبروا ان لهم السلطة على ماضى وحاضر ومستقبل المجتمع . ان كل جيل يضيف الى ما هو موجود وينقل ما هو موجود الى الجيل القادم . . أما الدولة الذين يريدون ان يطيحوا بها فهى متداخلة فى كل شىء أيضا . فى العلم ، والفن ، فى اسهام الاجيال ومن ثم فليس من حق هذا الجيل ان يلغى هذه الشركة . فهى نتاج عضوى لعملية طويلة من النمو ، . . انها ليست مصالح مادية ولكنها روابط روحية تربط اعضاء المجتمع بعضهم ببعض ، هذه الروابط قد تكون خفية وغير محسوسة كالهواء الا ان لها قوة حلقات الحديد بذلك أراد بورك وهو يمثل كل المحافظين أصـحاب الموقف المضـاد للثورة الفرنسـية ان يحافظ على الحريات التى ورثهـا عن ابائه السـابقين ولأنه

صاحب مصلحة فى ذلك ، فلم ير فيما حدث فى فرنسا فى هذه الفترة الا حكم الرعب فى زمانه ، ويتسائل زايتلن لقد كان الواجب على بورك ان يرى حكم الألف سنة من الرعب التى سبقت الثورة والتى قادت الى هذا البركان الثورى الذى أثار الرعب فيه (Zeitlin, 1969. P, 42) .

يبقى فى الساحة بعد ذلك موقفان : المثالى النقدى ، والموقف الوضعى الايجابى العلمى • أما الموقف المثالى فينبع من داخل الفيلسوف ومن ذاته خارجا الى عالم الأشياء ، بينما الموقف الوضعى على عكس ذلك يبدأ الشوط من عالم الأشياء لينتهى الى باطن الفيلسوف وذاته ، الأول ينتهج منهجا ذاتيا ، والثانى يصطنع المنهج الوضعى الذى يبنى لبناته من حقائق الواقع (زكى نجيب محمود ، ١٩٥٩ ، ص ص ٤٣ ــ ٤٤) •

كلاهما موقف يهدف الى فهم الانسان ، كلاهما يتخلى عن البحث فى الغيبيات أو فيما وراء الطبيعة ، ومن هنا وجدناهما على اختلافهما فى الموقف التصورى والمنهجى يتفقان فى مجال البحث من حيث هو الطبيعة والتاريخ ، هذا الى جانب تسليمهما بأن العالم تطورى سائر الى الامام لا سكونى ذو حقائق ثابتة أو جامدة • واذا فليس صوابا أن يقال عن وضعية القرن التاسع عشر أنها رد فعل للحركة المثالية التى سادت النصف الأول من ذلك القرن لأن الحركتين قد سارتا جنبا الى جنب وليس صحيحا أن يقال أن الوضعية كانت موقفا طبقيا مهاجما على جبهة ومدافعا على اخرى ، ذلك فيه تبسيط للأمور واخلال بمعان أساسية ، فقد كانت حركة علمية لها جذورها •• فى الفكر المتراكم السابق عليها ، ثم هى حركة فلسفية نزلت بالفلسفة الى واقع الانسان لذلك نرى ضرورة أن نعرض لموقفين :

١ ــ الموقف المثالى ، كما عرض له هيجل ثم امتداداته فى الماركسية •

٢ ــ الموقف الوضعى من خلال التعبير الكونتى عنه •

وفيما يلى استعراض موجز للامح كلا الموقفين :

١ ــ الفكر المثالى : أصوله وعلاقته بنظرية علم الاجتماع :

عادة ما نسم تيارا فكريا بكونه مثاليا استنادا الى أنه يدرك ما هو موضوعى بالنظر الى ما هو مثالى • ذلك يعنى أن الفكر المثالى يدرك العالم الواقعى بالنظر الى التصور العقلى له • حيث نجد أن ذلك قد تردد فى فلسفات كانت وهيجل وغيرهما من المثاليين فى كافة العصور •

وفى الصفحات التالية نعالج الفكر المثالى عند فلهلم هيجل ، وهى المثالية التى تستند الى المنهج الجدلى ، ذلك يفرض علينا ضرورة تحديد معنى الجدل • البحث فى ذلك يؤكد أنه عادة ما يعبر عن الجدل فى اللغة اليونانية بالكلمة Dialegein وتعنى جادل • فهى تعبير عن صراع الافكار (بوليتزر ص ٤٢) ولقد ورد استخدام هذا المصطلح عند فلاسفة اليونان من أمثال هيراقليطس ، وزينون الايلى ، وسقراط وغيرهم (زكريا ابراهيم ، ١٩٧٠ ، ص ١٣٩) •

بيد أننا اذا امعنا النظر فى الفارق بين الجدل عند فلاسفة اليونان والجدل فى العصر الحديث كما ظهر عند هيجل لوجدنا اختلافا واسعا • فهو عند اليونان مجرد طريقة للبحث والحوار أو أسلوب من أساليب العرض الفلسفى ، دون أن تكون له أدنى علاقة بحركة الأشياء أو صراع الواقع • ذلك لأن الجدل كان عندهم حركة فكرية وأسلوبا من أساليب المقال دون أن يكون لهذا الأسلوب أو لتلك الحركة اية احالة الى الواقع نفسه من طابع حركى •

فاذا كان تطور الفكر الجدلى المحدث على بدايته يؤكد أن له صلة ما بحركة الواقع الحية المتفاعلة ، ولم يتوقف عند كونه منهجية مقال أو حجاج • فانه لمن الضرورى أن يحتوى هذا الطراز الفكرى على تصور معين لهذا الواقع المتصل به • وبذلك سوف نحدد معالجتنا على محورين :

(أ) خصائص أو سمات التصور المثالى •

(ب) أسس المنهج الجدلى •

(أ) خصائص التصور المثالى :

اذا كنا قد أشرنا الى أن السمة الأساسية للفكر المثالى هو صياغة العقل لمثال يطلب من التفاعل الكائن بالواقع التطابق وهذا المثال • فاذا ما اقترب الواقع من التطابق ، فلربما تخلق مثال عقلى جديد يطلب من الواقع الجديد تطابقا جديدا أيضا •

أما الفكر المثالى الذى سوف نركز عليه ، فهو المثالية الهيجلية فى القرن التاسع عشر لأمرين ، الأول أن هذا الطراز من الفكر بلغ من الاهمية فى تاريخ

الفلسفة حدا جعله مصدرا لاهم الاتجاهات الفلسفية المعاصرة ، أما بالتأييد ، وأما بالتفنيد . ذلك أننا لانكاد نجـد فلسفة من فلسفات العصر لاتبـدأ من هيجل ، مناصرة له فى أقل الاحيان ، معارضة له فى أكثرها . فلم يقصر تأثيره على (الماركسية) أو « الوجودية »أو « البراجماتية » وهى اتجاهات ثلاثة من اهم اتجاهات الفكر المعاصر . بل شمل كذلك الحركات الفلسفية الاخرى التى هى من شأن محترفى الفلسفة ولاتتجاوزهم الى سواد المثقفـين ثقافة عامة (زكى نجيب محمود مرجع سابق ، ص ٣٤٣) .

أما الامر الثانى لاهتمامنا بالمثالية الهيجلية ، فينبثق عن صلتها المؤثرة على نشأة نظرية علم الاجتماع . حيث قد شكلت هذه الفلسفة أساسا فكريا ثوريا للموقف النقدى التى تذرعت به واستندت اليه الطبقات البروليتارية فى فترة ما بعد الثورة الفرنسية . بحيث نادت هذه الفئات بالقضاء الكامل على بناء المجتمع والبحث عن ما هو كامن وكامل بداخله . ومن ثم وقفت هـذه الفئات الثورية من الوضعية موقفـا مضـادا ، ادعاء بأنهـا تمثل فلسفـة هؤلاء المنسحبين ـ بحجة العلم ـ من ساحة الصراع والمشاركة الاجتماعية ،أوبناء عليها وقفت أمام الجماعات الرجعية التى تطالب باعادة ترميم بناء المجتمـع لاستعادة حالته التى كانت له قبل قيام الثورة الفرنسية . والمدهش فى الامر أن كلا الموقفين استند فى برهنته الى الفكر المثالى وبخاصة المثالية الهيجلية . هذا بالاضافة الى أن المثالية الهيجلية ، وطبيعتها المادية المتمثلة فى الماركسية الهمت الى حد كبير فكر التغير الاجتمـاعى ، خاصـة التغـيرات الثورية الراديكالية فى علم الاجتماع .

واذن ماهى خصائص التصور المثالى الهيجلى ؟ باستعراضنا لخصائص هذا التصور نجد انها أربعة :

١ ـ الوحدة الكلية الشاملة ، التى تبحث عن أكتمـالها عن طـريق فض تناقضاتهـا .

٢ ـ التصور العضوى للوجود الشامل .

٣ ـ التطور التاريخى المتفاعل ، سعيا لمثال أكثر تكاملا .

٤ ــ العقل أو الفكر ، وهو قائد عملية التفاعل لكى يتسق الواقع مع المثال وفيما يلى تفصيل لكل من هذه الخصائص .

١ ــ الوحـــدة الكلية الشاملة . كأساس للادراك المثالى :

كما هو مؤكد يؤدى التفحص الدقيق للفكر الهيجلى الى ادراك ايمـــانه بالوحدة الكلية الشاملة للوجود ، ومن هنا فان أية وقائع منفصلة عن بعضها البعض ترتبط ــ على يد هيجل ــ بالمبدأ الاوحد الذى يفسرها ويبررها جميعا وبذلك لايعود كل منها مطلق قائم بذاته ، أو حقيقة مستقلة مكتفية بذاتها . ذلك لان الحقيقة الاولى فى نظر هيجل هى الكل ، وان الاخطاء لاتخرج عـــن كونها وجهات نظر جزئية ، أو وقائع فردية منفصلة . ذلك لأنه من طبيعـــة الحياة أن بها ميلا لتحطيم ماهو منفصل ومعزول ومجرد ــ سواء كان ذلك على صورة موضوعية أو ذاتية بل أن كافة الوقائع فى الطبيعة والفكر معا ، لهى بمثابة أوجه مختلفة لتلك الحقيقة الكلية الواحدة التى يسميها هيجل باسم (المطلق) (زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ١٦٣) بذلك نجد أنجوهر الطبيعة والتاريخ عند هيجل انما هو كلى يتكشف من خلال ماهو جزئـــى ان الكلية هى العملية الطبيعيـــة للجنس ، كما تحقـــق من خلال انـــوع والافراد . والكلية فى التاريخ هى جـــوهر كل تطور ، فدولة المدينـــــة اليونانية ، والصناعة الحـــديثة ، والطبقة الاجتماعية ، كل هـــذه الكيانات هى قوى تاريخية فعلية لايمكن ردها الى مكوناتها ؛ بل أن الوقائع والعوامل الفردية ، على عكس من ذلك ، لاتكتسب معناها الا من خلال الكلى الذى تنتمى اليه ، فالفرد يتحدد لابصفاته الجزئية ولكن بصفاته الكلية ، مثل كونه مواطنا يونانيا ، أو عاملا فى مصنع حديث أو بورجوازيا (هربرت ماركيوز ، ١٩٧٠ ص ٨٩) . وذلك انه حينما أكد هيجل على الكلية وجعلها معقلا للحقيقة ، فانه كان حينئذ يعبر عن اقتناعه بأن أية صورة جزئية معطاة سواء فى الطبيعة أو فى المجتمع لاتتضمن الحقيقة كاملة . هذا بالاضافة الى أن هذه الكلية تعد وسيلة للتنديد بانعزال الناس عن الاشياء،والاعتراف بأن امكاناتهم لا يمكن ان يحتفظ بها الا باعادة التكامل بينها (نفس المرجع السابق ، ص ١٢٦) .

بيد أن الكلية الهيجلية الى جـــانب انها كليـــة كائنـــة الا أنها ليست

مقتصرة على هذه الكلية الكائنة ، بل انها كلية متكاملة يسعى اليهـــا التفاعل الجدلى بين العناصر الاجزاء ، والتى عند بلوغها ســوف ينتهى عندها تفاعلها النقضى ، فهى الى جانب انها كلية ما هو كائن ونعايشه فهى أيضا كلية الممكن والمرغوب الذى نسعى اليه .

٢ ـ التصور العضوى الشامل للوجود :

وتتصل هذه الخاصية الثانية بالخاصية الاولى ، اذ يبدو الكـون من وجهةنظر هذا التصور ككائن عضوى حى ذو رغبات وأهداف ، وكمـا نستطيع أن نفسر سلوك الكائن العضوى اذا ما عرفت رغباته وأهدافه فكذلك نستطيع تفسير ظواهر الكون وتغيرات التاريخ وتطورات الانظمة اذا عرفنا كيف يكشف الروح الكونى عن نفسه والى أى هدف يتجـــه (زكى نجيب محمـود ، مرجع سـابق ، ص ٣٤٣) . ويؤكد التصـور العضوى أيضا فى الفلسفة الهيجلية ضرورة قيام علاقات ترابط بـــين جزئيات الوجود وذاته ، بحيث أن حركة التغير فى احد أجزاء هـــذا الكل الشامل ، انما تكمن اسبابه فى هذا الكل أو فى أى من أجزائه ، وان تغيره انما هو تطوير نحو أكتمال هذا الكل ، وان التناقضات التى قـد تنتاب وحدة هذا الكل ، انما هى خطوات تمهد لهذا الكل طريق التجـــاوز والارتقاء نحو وحدة كلية اشمل وارقى واكثر اكتمالا . ذلك انه اذا كان هيجل قد جعل من مفهوم الكل مفهوما أساسيا مـن مفاهيـم منهجـــه الجدلى ، وذلك بأنه قد فطن الى أن (الحقيقة هى الكل) وان المنهـــج الجدلى انمـا يعنى فى النهاية ادماج سائر الاشياء فى الوحدة الاشمل ، وان العالم ـــ فى نظر هيجل ـــ يمثل وحده عضوية بالاضافة الـى أن أى جـزء من أجـزائه انما هو عضـو جزئى فى هـذا الكل العضـــوى (زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، صص ١٦٦ ـــ ١٦٧) . بيـــد أننا لا بد وان نوضح أن هذا التأكيد على الوحدة العضوية للكل ، تلك التى تعد احـدى خصائص التفكير الهيجلى لم يكن من نتاج هذا التفكير وحده . فالـــى جانب انها تمتد الى الفكر اليونانى القديم بل والفكر الشرقى القديـــم أيضا ، فانها كانت تمثل احـدى مقولات المناخ الفكرى فى مرحلة القـرن الثامن والتاسع عشر ، وذلك تحت تأثير الفكر التطورى والفكر الموسوعى الذى كان دائما يرسم صورة للمجتمع والعالم على انه مثـل الكائـــن العضوى فى مولده ونموه وموته . بل اننا نجد أن هـذا التقســـيم نفسه

عند هيجل حينما يؤكد أن التاريخ ينقسم الى أربعة فترات هامـــــة كل منها ذات صلة بمرحلة من مراحل الحياة الفرديـــة . فعصر الحضـــارة الشرقية يتوافق مع مرحلة الطفولة ، بينما نجد أن الحضارة الاغريقية تعبر عن شباب المجتمع أما حضارة روما فهى تعبير عن رجولة الانسان ، بينمـــا أن الحضـــارة الأوربيـــة في زمـــان هيجل تعبير عن النضـــج البشـــرى (Mackenzie, op,cit, P. 20) بيد اننا يجب ان نلاحظ أن حالة الاكتمال والنضج الأخيرة ، هى الحالة التى تسعى اليها الحضارة دائما وفقا للمشروع الهيجلى بعد ان تكون تخلصت من كل صراعاتها وتناقضاتها الجدلية .

بل اننا نجد أن هذه الخاصية كانت من اهم نقاط البدء لاهم فلسفـــات عصرنا ، وهى الفلسفة الوجودية لكيركجادر ، الذى ثار على هيجل ونسق الفكر الذى يجعل من الوجود كله كائنا عضويا واحدا ، فقد أفزعه ـــ على حد قوله ـــ ان يرى نفسه فقرة من فقرات هذا الكائن الكبير ، لا ينفرد وحده بوجود خاص يمارس فيه ارادته الحرة وشخصيته المستقلة (زكى نجيب محمود ، ص ٣٤٦) .

٣ ـ التطور التاريخى المتكامل سعيا لمثال أكثر تكاملا :

تشكل هذه الخاصية البعد الدينامى المتفاعل فى عملية الانتقال من أحد أشكال الوحدة الكلية الى أشكال كلية أخرى أكثر تكاملا وارتقاء . وهو يبنى هذا الانتقال من خلال حركة التناقض والنفى الجدلى فقد أكد هيجل مرارا على أن الوعى ينمو من خلال الفكر التأملى على مراحل ، وأن الحقيقة أو الصدق هـــى العملية التى يعتبر فيها الموضوع والذات مجرد وجوه لها . فالوعى الفردى عبارة عن عوارض فى تطور عالم الروح ، والتاريخ ذاته هو نمـــو لوعى النوع الانسانى ، والفكر ما هو الا ناتج نهائى لهذه العملية الشاملة . (Martindale, 1961, P. 55)

ذلك ان الكون من وجهة نظر المذهب الهيجلى كله بجميع ما فيه ما هو الاتعبيرا عن (روح العالم) أو (الفكرة المطلقة) أو ان شئت فقل (المطلق) على سبيل الاختصار . هذا المطلق يكشف عن نفسه فى مظاهر العالم كمـــا

تقع فى حواسنا ، فلئن كان العالم المحسوس متطورا من مراحل ادنى الى مراحل أعلى ، فما ذلك الا تطور فى كشف (الروح المطلق)عن نفسه كشفا متدرجا ، كأنما هو الشريط المنطوى على نفسه يبسط نفسه بسطا ليبدو ماكان منه خافيا .. هذا الكشف عما هو خاف لا ينجزه الا تناقض وتطور وتغير ، فهيجل لم يعد يرضيه المنطق الارسطى السكونى ، لانه لا يصور الحقيقة المتطورة ، واستبدل به منطقا تطوريا يقابل به الحقيقة كما تصورها . فاذا كان شىء ما (أ) سيتغير بحيث يصبح شيئا آخر (ب) فلا بد أن تكون عناصر (ب) كائنة فى (أ) ليمكن خروجها منها ، واذن فقد كانت (أ) محتوية على شىء غيرها ، أى محتوية على نقيضها . وبهذا يجتمع النقيضان فى كائن واحد على خلاف المبدا الارسطى كيف للشجرة مثلا أن تخرج من البذرة ان لم تكن البذرة محتوية على ما ليس بذرة ؟ وكيف يمكن للرجل أن ينشأ عن الطفل اذا لم يكن الطفل محتويا على ما ليس طفلا ؟ وهكذا .

كان هذا المنطق التطورى ، أو الجدلى كما يسمونه ، هو محور الفلسفة الهيجلية ، ذلك لانها تذهب الى القول بأن فى الكون روحا مطلقا يكشف عن نفسه على طراز تطورى أو جدلى ، وهو طراز قوامه أن تكون الخطوة الاولى — ويمكن تسميتها بالوضع — كاشفة عن صفة ما ، ثم تتلوها خطوة ثانية — وهى نقيض الوضع — كاشفة عن نقيض الصفة الاولى ، وأخيرا تجىء مرحلة ثالثة — هى التقاء الطرفين — تدمج الوضع ونقيضه فى كائن واحد ، ثم يصبح هذا الدمج (وضعا) يتلوه (النقيض) فدمج جديد (زكى نجيب محمود ، مرجع سابق ، ص ص ٣٤٣ — ٣٤٤) . وهكذا حتى يبلغ التفاعل كماله .

ثم يطبق هيجل ذلك على نظم ، وأشكال تاريخية يتقمصها هذا الروح المطلق ، بحيث أن كل نظام يحمل فى ذاته بذور فنائه ووسائل القضاء على ذاته وتحوله الى نظام يناقضه ثم يفنى هذا الأخير ليتولد ثالث يجمع به كلا النظامين السابقين . ثم يأتى نظام ضد هذا النظام (حسن شحاته سنفان — ١٩٩ ، ص ٢٤٩ — ٢٥٠) ويجمعهما تآلف ثالث أكثر اكتمالا وتطورا . ويطبق هيجل ذلك على تاريخ الانسان ومساره على سلم التطور

ابتداء من العالم الشرقى القديم الى العالم الحديث حيث يجعل الانسان نفسه الموضوع الفعلى لهذه العملية التاريخية . فعن طريق سلب الانسان لكل شكل تاريخى للوجود . يعد قيدا على امكاناته ، فانه يحصل نتاجا لذلك على الوعى الذاتى بالحرية (هربرت ماركيوز ، مرجع سابق ، ص ١٣٦) . وتستمر هذه العملية التى تتضمن أساسا نفى الاشكال التاريخية التى تقيد هذه الحرية ، وكل شكل يولد نقيضه ، الذى يلغى بدوره بشكل آخر ثالث يجمع أكثر صفات النقيضين كمالا ، حتى نصل الى اكتمال نهائى للوجود عن طريق هذا النمو الجدلى .

الا أن التصوير الهيجلى للتطور ، على أساس أن العمليات التى تهتم بنفى النفى لا تضيف الى أى منهما شيئا عن كيف يحدث أو كيف حدث الانتقال أو التحولات من شكل الى آخر . هذا بالاضافة الى أن ما يدعى أنه ينتج خلال النمو الجينى أو خلال الانتخاب الطبيعى هو سلب انما هو تشبيه شاعرى . ذلك أن ما تشترك فيه كافة العمليات التطورية ليس سلب الاشكال الاولى أو السابقة ، ولكن تحويلها فقط . ولكى تثبت أو تؤكد على على تواجد مثل السلطة التطورية فان صلة ماينبغى أن يحافظ على بقائها . حقيقة ان الناتج النهائى لسلسلة التطور قد لا يحمل أى تشابه والاشكال الاولى فى السلسلة . ومع ذلك فليس هناك تبرير امبيريقى معقول لافتراض أن كل سلسلة تطورية يجب أن تنتج عن تغيرات عنيفة دون النظر الى طول المدى الذى تستغرقه سلسلة التطور . فبالطبع لا يستطيع أى منا أن يمنع هيجل من القول أن عقلاء البشر هم نفى لبشر النياندرثال ، الا أن مثل هذه المحاورة اللغوية لم توضح بصورة أوضح الشروط المسئولة عن تطور الانواع الانسانية الحديثة . وبالمثل فليست هناك فائدة يمكن أن نحصل عليها سوى نوع من الاثارة الشاعرية حينما يقرر ماركس وانجلز أن ظهور ملكية الارض الخاصة يعبر عن نفى الملكية الشيوعية البدائية ، وان الملكية الشيوعية الاشتراكية هى نفى النفى .

ثم يعيب مارفن هاريس على هيجل انه وقع فيما وقع فيه أوجست كونت حينما اراد أن يستشهد على تصوره بتاريخ المجتمع الاوربى فقط ، ذلك لانه كان ينظر بحطة الى هذه الشعوب اذ يؤكد انه بالرغم من أن هيجل يتلطف باعتباره

الهند والصين خليقتين بالاهتمام والعراقة ، الا أنه كان مقتنعا بأن هذه البلاد ليس لديها دور تلعبه فى الشئون الدولية ، لاسبا بمتعلقة بالروح فقط . اذ ان تاريخ العالم يرحل من الشرق الى الغرب ، حيث أن أوربا هى نهاية التـــاريخ بصورة مطلقة ، بينما آسيا هى البداية . وان الخطوط العامة الموجهة لهذه الحركة تطرح بواسطة نمو الوعى بالحرية ، اذ نجد بين الشرقيين رجل واحد فقط هو الذى يمتلك الحرية ، بينما عند الاغريق نجد حفنة هى التى تمتلكها، والآن يعرف العالم الالمانى أن الكل أحرار . ونكمن المعضلة النهائية فى هذه الصياغة ، ان مفسرى هيجل لم يتفقوا الى الآن على أى نوع من الدولـــة الألمانية تلك التى نعدها الهدف النهائى للتاريخ ، الا أنه يبدو أن هيجل اعتقد أن العسكرية البروسية هى النسق أو النظام الذى يعيش الجميع فى كنفه أحرارا . (Ibid, P. 70)

٤ ـ العقل أو الفكر ، هو قائد عملية التفاعل لكى ينتسق الواقع مع المثال :

تعد هذه الخاصية خاصية جوهرية فى الفكر المثالى ، ذلك لان هـــذا الاتجاه يعيش فى نوع من التطهر الذى لا تدنسه أمور الواقع ، فهو أكثـــر ارتباطا بالفكر وأكثر التزاما به ، الا أن هذا لا يعنى اغفال ما بالواقع واسقاط اية أهمية عنه . بل يعنى طلبا دائما لترقى هذا الواقع وفقا لمثال يصوغه العقل . هذا المثال الذى اشتقه لكونه امكانية دائمة فى جوف هذا الواقع .

من هنا نستطيع أن نؤكد ان المنطق الهيجلى ليس مجرد علم للقواعد التى تفرض نفسها على التفكير الذاتى ، بل هى بمثابة النسيج العقلى للواقع، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين الى القول بأن منهج هيجل الجدلى انما هو تعبير عن أعلى طموح للعقل فى سعيه نحو الالتقاء بذاته فى كل شىء ، والتعرف على نفسه فى كل شىء (زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ١٦٣) . الان هذا العقل ليس ملكه توجد فى الفرد ليقتبس بهـا العادات والنظم فقط ، بل هو موروث فى عملية النمو ذاتها ، وهذا يلقى ضوءا على فكرة هيجل (أن ما هو عقلى حقيقى وما هو حقيقى عقلى) . فالعقل ليس كما اعتبره الفلاسفة مجرد تجريـــد عـــن الواقع ، أنه قدرة فطرية وضرورية تحدد بناء ونمو الكون ، وبهذا الاسلـــوب يجعل هيجل من العقل قوة كونية عظيمة يسميها بالروح ، بالفكرة أو المطلق

أو الله ، العقل بذلك ليس جوهرا ثابتا ، ولكنه فى حالة امكان ونمو دائم ، فضلا عن انه عملية كونية ومنطقية ولا شخصية تفوق نطاق ما هو اجتماعى ونطاق ماهو طبيعى (Zeitlin, op, cit, P. 50) .. ، بل أن حيـاة العقل ونموه وتحققه بالنسبة لهيجل تتمثل فى صراع الانسان الدائم من اجلفهمماهوموجودوتشكيله وفقـا للحقيقة المفهومة .. كذلك فان العقل قوة تاريخية أساسا ، متحققة بوصفه عملية متطورة فى العالم الزمانى والمكانى ، وهو فى نهاية المطاف ليس الا التاريخ الكامل للبشرية .. واللفظ الذى يشير الى العقل تاريخا هو الروح الذى يدل على العالم التاريخى منظورا اليه فى علاقته بالتقوم العقلى للانسانية، أى العالم التاريخى ليس بوصفة سلسلة من الأفعال والاحداث بل بوصفة صراعا لا ينقطع من اجل تشكيل العـالم تبعا للامكانيات البشرية المتزايدة .

ويرتب التاريخ فى عصور متباينة ، يدل كل منهما على مستوى خـاص للتطور ، ويمثل مرحلة معينة فى تحقق العقل ... ولابد من فهم كل مرحلة من حيث هى كل ، من خلال أساليب التفكير والحياة السائدة المميزة لها ، أو من خلال نظمها السياسية والاجتماعية ، وعلمها ودينها وفلسفتها . واذا كان تحقيق العقل يمر بفترات متباينة ، فانه لا يوجد مع ذلك الا عقل واحد مثلما لا يوجد الا كل واحد وحقيقة واحدة (هربرت ماكيوز ، مرجع سابق ، ص٣٤) . يعنى ذلك أن تحقق العقل وتغلغله من خلال الواقع والتاريخ يؤكد احتواء هذا العقل على الكلية والشمول والثراء ذلك لأن تأكيد العقل معناه اعلان أن أفعال الانسان هى أفعال ذات مفكرة تسترشد بالمعرفة التصورية . وفى استطاعة الذات المفكرة ، اذا اتخذت من التصورات أدوات لها أن تتعمق وراء الظواهر العارضـة وتتغلغل فى الأساليب الخفية للعالم ، فتصل الى القوانين الكلية الضرورية التى تحكم الموضوعات الفردية اللانهائية وتنظيمها . وهكذا تكشف الذات المشتركة عن امكانات كثيرة بين كثرة من الجزئيات . وهى امكانات تفسر الاشـكال المتغيرة للاشياء وتحدد المـدى الذى تبلغه فى مسارها واتجاه هذا المسار ، وحينئذ تصبح التصورات الكلية أداة لمسلك عملى يغير العالم ، وقد لاتظهر هذه التصورات الا من خلال هذا المسلك العلمى . وقد يتغير مضمونها كما تقدمولكنها لن تكون متوقفة على المصادفات ، ذلك لان التجريد الحقيقى ليس اعتباطيا ، وليس هو نتاج للخيال الحر المنطلق ، بل هو يتحدد تماما بالبناء الموضوعى للواقع

(نفس المرجع ، ص ص ٢٥٠ ــ ٢٥١) والحق أن القول بأن يتحدد العقـــل بالبناء الموضوعى للواقع ينفى أى اتهام بانفصال فلسفة هيجل عن الواقع . ذلك لان العقل اذا تغلغل بناء على مقولات معينة فى الواقع ، فان هذا الاخير اسهم بقدر واضح فى صياغة هذه المقولات ، وعلى ذلك ينبغى أن يخضع الفكر لما هو معطى ولحقائق الواقع (نفس المرجع ، ص ٢٢٦) . ومعنى ذلك ان الجدل يميل الى وصف شـــتى ضروب التنافر الشائعة فى عـــالم الواقع . وهنا لايكون الديالیكتيك مجرد جدل محض يقوم على علاقة التناقض ، بل نراه يستحيل الى دراسة تكشف لنا عن ضروب الصراع القائم فى دنيا الواقع . والحق أننا لو نجحنا فى الامتداد الى ما وراء العمليات المنطقية التى صاغ منها هيجل كل استدلالاته الجدلية ، لما وجدنا صعوبة كبرى فى الكشـــف عن (جدل الواقع) فيمـــا وراء (جدل الفكر) . ومعنى هذا ان صراع الأشـياء يكمن من وراء (تناقض التصـــورات) بحيث انه بمجـرد ما ينجح البـاحث فى اختراق قشـــرة ذلـــك (الجدل التصورى) القائم على التناقض فانه سرعان ما ينفذ الى صميم بناء الاشياء ، لكى يتحقق من أن « التنافر » هو المبدأ الواقعى الذى يعمل عمله فى باطن هذا العالم (زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ص ص ١٦١ ــ ١٦٢) . ومعنى هذا أيضا أن الحركة الجدلية لتاريخ الفلسفة (وهى تلك الحركة التى تقضى فى النهاية الى الحقيقة الحاسمة المطلقة) انما هى انعكاس للحركة الجدلية للتاريخ الفعلى للواقع (نفس المرجع ، ص ١٦٩) .

(ب) أسس المنهج الجـدلى :

اذا كنا قد حددنا القسمات الرئيسية للتصور الجدلى الهيجلى ، فاننـــا نرى لزومية أن نحدد أيضا الاسس المنهجية التى استند اليها هذا التصور فى بناء مقولاته السابقة . حقيقة أن الفصل تعسفى أحيانا وذلك أن المقولات أو القضايا التصورية فى الأنساق النظرية عادة ما تكون هى نفس الاسس المنهجية لكنها هذه المرة فى حالة من الاجرائية ، أعنى أن الباحث يتناول الواقع بالدراسة على أساس . من هنا فان الاتصال عادة ما يكون دقيقا وتاما فى النسق النظرى بين هذين المستويين . أما أسس المنهج الجدلى فها كما يلى :

١ ــ الاساس الأول : الترابط .

٢ ــ الأساس الثانى : التحول الشامل :

٣ ــ الاساس الثالث : التحول النوعى .

٤ ــ الأساس الرابع : نضال الاضداد .

١ ــ الأساس الأول : الترابط :

على عكس المنهج الميتافيزيقى الذى ينظر الى مكونات الوجود وظواهره ، على انها منفصلة بعضها عن بعض ، حيث الواقع منفصل عن الفكر ، وتاريخ المجتمع ليس تعبيرا عن نمو هذا الكل العضوى طلبا لحالة من الترقى والاكتمال ، ولكنه خليط من العوارض ، ومن الصدف العابثة . فبينما نجد ان الميتافيزيقى يجرد واقعه أو ظاهره عن مجموع الظروف التاريخية التى أوجدتها والتى تفسرها ، فان المنهج الجدلى يركز على علاقات التفاعل والترابط العضوى بين الظواهر . ولهذا يرى المنهج الجدلى أنه لا يمكن اجراء تفسير لأى ظاهرة طبيعية اذا نظرنا اليها على حدة خارج الظواهر المحيطة بها ، لأنها تصبح بلا معنى اذا نظرنا اليها فى منأى عن هذه الظروف المتعلقة بها ، ذلك لان الاسلوب الامثل لفهم الظاهرة وتفسيرها لا بد وان يكون من خلال علاقاتها بالظواهر المحيطة التى ترتبط بها ، وهذا انطلاق من أن الفهم الجدلى يؤكد أن كل شىء فى الطبيعة مرتبط بعضة ببعض (بوليتزر ، مرجع سابق ، ص ٥٧) .

٢ ــ الأساس الثانى : التحول الشامل :

يلاحظ ان للمنهج الجدلى طابعا ايجابيا يتجلى فى حالة نفى النفى . ومن ثم الانتقال بالتفاعل الجدلى من السلب الى الايجاب . وعلى ذلك يكون التفاعل الجدلى فى حالة تجاوز وتحقيق مستمر يكون منتهاها فى لحظة التأليف . ويعبر هيجل عن هذه اللحظة بفعل المانى معناه (الرفع) الذى يعنى فى آن واحد (المحو أو الالغاء) من جهة (والمحافظة أو الابقاء) من جهة أخرى . ومعنى هذا ان مركب الموضوع يقضى على كل من (الموضوع) ، (نقيضه) من جهة ، ولكنه يحافظ عليهما ويستبقيهما فى وحدته العليا من جهة أخرى ، ولا شك ان التناقض واضح فى هذا التعبير ؛ ذلك لانه يتضمن معنيين متعارضين تماما هما معنى الافناء والبقاء . ولكن ربما كان فى وسعنا ان نقول ان (مركب الموضوع) عند هيجل يتسامى بكل من (الموضوع) و

(ونقيضه) الى حقيقة أعلى من كل منهما ، بل ومن الاثنين مجتمعين . فهو يحولها الى مجال أسمى بحيث يخلع عليهما حقيقة أخرى جديدة (زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ص ١٦٥ — ١٦٦) . وبذلك يكون الوجود أو الطبيعة والمجتمع فى حالة تحول شاملة ، أو هى حالة من الحركة والتغير الدائمين والتجدد والنمو المستمرين ، حيث يولد أى شىء بينما ينحل آخر ويزول ... وبذلك لايصبح هناك انفصال بين الواقع أو الطبيعة وبين الحركة وانما يصبح الواقع أو الطبيعة ذاتهما هما الحركة (بوليتزر ، مرجع سابق ، ص ٩٣) . ولعل طبيعة هذا التفاعل الحركى الشامل هى الطريق الاساسى الذى يمتطية الوجود نحو حالة من الترقى والاكتمال . اذ يكون الجديد قد وجد على نحو ما فى قلب القديم ، ولكنه لم يكن يوجد فيه الا بوصفه امكانا ، وكان الشكل السائد للوجود يحول دون تحققه فعليا ، فلابد اذن من الخروج عن نطاق هذا الشكل السائد (ان تغير الوجود) هى (عملية تحول الى آخر) تكسر نطاق التدرج ، وتكون مختلفة كيفيا بالقياس الى حالة الوجود السابقة . فليس فى العالم تقدم مطرد بل أن ظهور كل وضع جديد ينطوى على قفزة ، أو أن مولد الجديد هو موت القديم (هربرت ماركيوز ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٩ — ١٥٠) .

٣ — الاساس الثالث : التحول الكيفى أو النوعى :

يتمثل هذا الاساس الثالث ، فى الحركة الاخيرة من اللحظة الجدلية ، وهى الحركة التى يكون فيها مركب الموضوع ، حقيقة جديدة ، ومختلفة تماما عن الحركتين السابقتين (الموضوع ونقيضه) التى تألفت منهما . اذ نكون فى هذه الحالة أمام انبثاق طفرى جديد ، وهو نتيجة منطقية للتحولات الشاملة ، وهدف لهذه التحولات . ذلك لان التغيرات التدريجية البسيطة هى قياسات أو كيفيات بسيطة تضاف ، ولكن فى لحظة معينة تكثر هذه الاضافات من ناحية ، وتكثر مقادير النفى والالغاء فى الحقيقة من ناحية أخرى بحيث أن الحقيقة المتولدة تصبح جديدة تماما عن سابقتها مع انها تحمل منها شيئا ما . وربما يسعفنا المثال المشهور لكوم الحبوب الذى لا يعود كوما لو ازيلت منه حبة بعد حبة ، أو الماء الذى يصبح ثلجا عندما يصل النقصان التدريجى للحرارة الى نقطة معينة ، أو للامة التى تتفكك وتنحل فجأة خلال توسعها

وقد لاتعبر هذه الامثلة عن المعنى الكامل لفكرة هيجل ، ولكنه كان يستهدف بها معارضة الراى القائل ان (عملية الظهور والاختفاء) هى عملية تدريجية ، وكذلك الراى القائل ان (الطبيعة لا تعرف الطفرات) (نفس المرجع السابق ، ص ١٤٩) . ولعل هذا ما حدا بالماركسيين (من بعد) الى تعليق اهمية كبرى على هذا الاساس الخاص من اسس الجدل ، الا وهو قانون التحول الكيفى .

٤ ـ الاساس الرابع : تفاعل الاضداد :

يستند هذا الاساس الى ثلاثة اعتبارات هامة اولها ان حركة الواقع هى نتاج للتناقض بين وحدات الجدل الثلاثة ، اذ لولا هذا التناقض لما كان التغير ، ولولا التناقض والاضافة لما كان التقدم نحو وجود اكثر اكتمالا ، والتناقض غالبا ما يكون داخل الاشياء فلكل ظاهرة تناقضها الداخلى ، وهى السبب الرئيسى لنموها ، أما صلتها بالظواهر الاخرى فهى ثانوية (بوليتزر ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٩ ـ ١٣٠) . ويؤكد هيجل أن الشيء عندما يتحول الى ضده ، وعندما يناقض ذاته فانه يعبر عن ماهيته (هربرت ماركيوز ، مرجع سابق ، ص ١٥٦) .

أما الاعتبار الثانى فيؤكد على الدور التجديدى للتناقض ذلك لان هذا التناقض بين القديم والجديد عادة ما يتمخض عن تولد الجديد فى احشاء القديم . ذلك الجديد الذى لابد وان يكون قد وجد على نحو ما فى قلب القديم ولكنه وجد بصفته امكانا . وان هذا الامكان مع بعض الاضافات يقود الى وجود الجديد ، وذلك لايعنى الغاء القديم كلية ، ولكنه يبقى على العنصر الجوهرى فيه ، ومن ثم فان كل ما فى الوجود شاهد على بقاء الطاقة واستمرار القيم ولولا وحدة (الواقعى) و (المثالى) لزال المثل الأعلى من الوجود تماما . او لما استطاع أن يوصل جذوره فى أعماق الواقع . بذلك لا تقضى الاشكال الجديدة على القديمة ولكنها تتسامى بها دون أن تمحوها (زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ١٦٥) .

أما الاعتبار الثالث فهو اشتراك او انضواء أطراف التناقض داخل وحدة عضوية كاملة ، وذلك على عكس الوجود الميتافزيقى حيث توجد الاضداد فى

حالة انفصال تام . أما في الجدل فلابد من تواجد الوحدة بين النقيضين ، فالعلم والجهل نقيضان الا اننا اذا امعنا النظر للاحظنا أن كل علم هو نضال ضد الجهل ، فليس هناك علم مطلق ، بل تظل الطبيعة حاملة دائما لما يجهله العلم . الا أن هذا التواجد المعى داخل وحدة واحدة يؤكد ضرورة وجود تأثير متبادل ، حيث يؤثر هذا التأثير دائما فى الاضداد ، بحيث ينتقل بهم دائما الى حالات كيفية جديدة ، لانه تأثير مضيف ، فهو انتقال مما هو ادنى لما هو أعلى ، ومن ثم فهو حركة متفاعلة دائما تسعى الى تجاوز ذاتها دائما نحو وجود اكثر اكتمالا وارتقاء (بوليتزر ، مرجع سابق ص ١٣٧) .

٢ ــ الفكر الوضعى : أصوله واسهاماته فى نظرية علم الاجتماع :

الوضعية ليست جديدة وليست على ما يدعى ردا على الفكر النقدى ، لانها فى ذاتها يمكن ان تكون فكرا نقديا . اما لكى نحدد أصولها فان ذلك يستوجب منا أن نرجع الى للوراء ، الى الفكر الاغريقى القديم عند الذريين والسوفسطائيين ، فمن الفئة الاولى نجد أن ديمقريطس قد فهم كافة التغيرات والتحولات فى الطبيعة على انها تعزى الى الانفصال والاتصال الذى لا يتوقف فى الذرات . واعتقد ان الخصائص تعتمد على حجم وترتيب هذه الذرات . ثم انه اعتقد أن المعرفة تنتج عن الملاحظة ، وأن عدم اكتمال الحواس أو ادراكها يعد احد المصادر الرئيسية للخطأ .

بيد انه اذا كنا نستطيع أن نأخذ افكار ديمقريطس على انها مساعدة أو مدعمة للعالم الوضعى الحديث ، الا اننا نشك ان افكاره هذه كانت مؤسسة على الملاحظة ومحددة بواسطة الاجراءات العلمية ، بل انه يبدو انه قد توصل اليها استنباطيا من مبادئه الرئيسية . (Martindale, op. cit, P. 55).

وتشكل الحركة الفكرية المعروفة بالسوفسطائية بعدا تاريخيا آخر للفكر الوضعى الحديث . فلقد أعلن السوفسطائيون تخليهم عن الابحاث الميتافيزيقية واستندوا فى موقفهم الفكرى الى التجربة . ولقد سعو فى جمع اعظم قدر من المعرفة عن كافة نطاقات الحياة .. وكان منهجهم فى ذلك امبيريقيا استقرائيا . اذ جاهدت النزعة السوفسطائية على بناء كافة معارفها على اساس من التجربة ثم حاولت الوضعية الحديثة صياغة امتداد للمنهج العلمى لحل المشاكل اليومية التى قد تظهر من اجتماع البشر

اذن فللوضعية جذورها الضاربة فى الفكر البشرى ، وليست على مايحاول البعض استكشاف اصولها وارجاعها الى جدل أو رد فعل حوارى مع الفكر النقدى السلبى .

بيد اننا يمكننا استكشاف اصولا أكثر اقترابا للوضعية فى الفترة السابقة على قيام الثورة الفرنسية ، أو تلك التى اشعلت جذوة عصر التنوير بما طرحته فيه من افكار بحيث اننا نحاول ان نرى فى الوضعية امتدادا فكريا لمحورين أو تيارين فكريين .. الاول ، هو المنهج العلمى ، والثانى هى الفلسفة الامبيريقية الانجليزية .

ولتوضيح علاقة المنهج العلمى المؤسس على الاستقراء والتجريب بالفكر الوضعى نرى ضرورة استجلاء البعد التاريخى لهذا المنهج . حيث كان ظهوره نتاج نزاع قام بين الانسان وبين ما هو غيبى وراء هذا الواقع .

فنحن ندرك طبيعة الفترة التى سبقت الثورة اللوثرية حيث شكل الفكر الكنسى اساس التفسير لكل ما هو معضل وغامض أمام الانسان ، واصبح سدنة الفكر هم القساوسة وكتابهم هو الكتاب المقدس ، وارتبط بذلك الفكر الصورى لارسطو الذى ارتضته الكنيسة طبقا لفكرها الغيبى المقدس ، وبناء على ذلك صدر قانون فى السنة ١٦٢٤ من برلمان باريس يقضى بتوقيع عقوبة الاعدام على كل من يأتى بأفكار تعارض أرسطو (حسن شحاتة ، سعفان مرجع سابق : ص ١٩٧) .

بيد ان الانسان وفكره كان لابد وان يبحثا عن مخرج من هذا الحصار الذى اغلق مسالك تطور الفكر البشرى . ووقعت فى هذه الفترة واقعتان حطمتا هذا الاحتكار الكنسى للفكر . حيث تمثلت الاولى فى رحلات الرحالة والتجار والمستكشفين الى الشرق ، واطلعت الأوربيين على ديانات وانبياء ومفكرين ككونفشيوس ، وبوذا ، وزرادشت ، وان هذه الديانات تسودها حرية اعتقاد وحرية فكر (نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٠) .

وتمثلت الواقعة الثانية فى اختراع يوهان جوتنبرج للطباعة ، حيث تيسر طبع الكتب وأصبحت متوفرة وفى متناول العامة ، وخاصة الكتب المقدسة التى توفر القساوسة على احتكارها ، وادى ذلك الى فهم الناس للكتب المقدسة على اصولها الصحيحة ، وادى ذلك بالتالى الى تراكم توتر ضد الكنيسة التى

تعمل على اعاقة الفكر وتكبيله لا سيما بعد تعنت اخذ هؤلاء القساوسة وهو يوهان تتسل فى سنة ١٥١٧ وطرحه لما يسمى بصكوك الغفران (نفس المرجع ، ص ٢١١) .

ومنذ هذه الاونة بدأ الانسان يترك ما هو غيبى ويتعقل بنفسه وقائع حياته . ويمكننا ان نسجل ان ثورة لوثر فى ٣١ مارس ١٥١٧ كانت تمثل نهاية وبداية ، نهاية للاحتكار الفكرى الذى مارسه اباء الكنيسة وبداية لامكانية ان يسهم اى من افراد الشعب فى استيعاب الفكر او خلقه بل اننا يمكننا ان نسجل ان هذه الفترة شهدت انتهاء الفكر اللاهوتى الثيولوجى وبداية الفكر العقلى المتيافيزيقى . هذا بالاضافة الى ان الثورة اللوثرية كانت ثورة دينية واقتصادية ، حيث كان لها نتائج باهرة ، من الناحية الفكرية ، اذ كسرت احتكار الكنيسة الكاثوليكية على الافكار وعضدت من سلطة الملوك ، وبذلك فتحت الباب أمام تقدم العلوم والفنون والاداب (نفس المرجع ، ص ص ٢٠٢ — ٢٠٣) .

بذلك ازدهرت حرية البحث العلمى ، وشكل الاسلوب العلمى اساسا لفهم العالم وبدأت تثمر جهود العلماء فى هذا المجال فاثبت كوبر نيقوس ان الارض تدور حول نفسها امام الشمس كما تدور مع الكواكب الاخرى حول الشمس ، واثبت جاليليو (١٥٦٤ — ١٥٦٢) نفس النتائج باستخدام اختراعه الجديد وهو التلسكوب ، وتخلصت بحوث الميكانيكا والفلك من الافكار الروحية والغيبية على يد جاليليو وديكارت حيث استطاع الاخير ان يفسر الحركات السماوية والفلكية ، والطبيعة العضوية وغير العضوية عن طريق المادة والتجربة تفسيرا رياضيا علميا بحتا (نفس المرجع ، ص ١٩٧) . بل اننا نجد انتشار اثر هذه الثورة فى مجالات علمية اخرى كالتشريح وعلم الاجنة وعلم الحيوان (نفس المرجع ، ص ١٩٨) .

معنى ذلك ان محاولة الانسان لفهم واقعه جعله يرفع سلاح العقل سواء فى نطاق العلم او الفلسفة ضد الكنيسة وضد كل ما يمكن ان يعوق التطور الفكرى ، وتمثلت اليد القابضة على هذا السلاح فى الطبقات الشعبية

غير الطبقة الارستقراطية وبخاصة الطبقة الوسطى (هربرت ماركيوز ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩) .

بيد ان التناقض بدأ يأخذ طريقه بين العلم والفلسفة ، اذ انهما بعد ان فرغا من القضاء على اللاهوت ، بدأ كل منهما يحاج الاخر فى منهجه واسلوبه . فبينما فريق يؤكد ان العقل هو الذى خلص الانسان من طغيان اللاهوت وانه يجب ان يواصل مسيرته نحو خلق عالم اكثر ملاءمة للانسان . وعلى ذلك فما على الانسان الا ان يبذل كل جهده لصياغة واقع متكامل على غرار تصور عقلى متكامل ، نجد ان فريقا اخر يؤكد ان قدرته تتأكد باستناد مقولاته على اساس دراسة الواقع دراسة مفصلة يصوغها فى قضايا تعالج ترابطات الظواهر . ذلك بيسر الوصول الى القوانين التى تحكم هذه الظواهر ، وتمثل ذلك بأوضح ما يكون فى المناداة بالمنهج الاستقرائى . اذ نادى فرنسيس بيكون فى كتابه (الطريقة الجديدة) بضرورة الالتجاء الى التجربة والبحث على اساس المنهج الاستقرائى ، لان هذا السبيل هو الكفيل بتوصيلنا الى معرفة جديدة . فاذا تمكنا من الوصول الى قوانين ، فاننا نستطيع الاستفادة منها فى واقعنا ، بأن نوجه الطبيعة لخدمة الانسان والاغراض الانسانية ، ذلك يتضح من قولته الشهيرة (لكى يخضع الانسان الطبيعة يجب عليه أولا دراستها حسن سعفان ، مرجع سابق ص ١٩٨) .

وقامت الثورة الصناعية التى تعد امتداد لهذا التقدم العلمى ، الا انه حينما قامت الثورة الفرنسية ، وما شاع من اضطراب فى بناء المجتمع كان على المنهج العلمى الذى نجح فى علوم الطبيعة والكيمياء والرياضة وما الى ذلك ان يحاول النجاح فى النطاق البشرى ايضا ، اعنى ان يتناول شئون الاجتماع بالدراسة العلمية المستندة الى أسس ومحكات منهجية ، وكان على هذا التيار ان يؤكد للفلسفة وايمانها بالعقل ان تثوير الواقع لا يمكن ان يظل ابدا ، بل علينا ان ننزل لهذا الواقع ، ونحاول تناوله بالدراسة العلمية ، وظهر ذلك فى شكل اسهام من المنهج العلمى فى قيام الفكر أو الفلسفة الوضعية . بذلك اتخذت الفلسفة الوضعية من العلوم الطبيعية نقطة بداية لها ، محاولة أن تؤكد ان ظواهر الاجتماع تخضع لنفس القوانين التى تحكم ظواهر الطبيعة الاخرى وتوصلت الى ذلك بانجازا امرين ، أولهما تطبيق

مناهج البحث المستخدمة فى العلوم الطبيعية فى دراسة كل مجالات الخبرة ، وثانيهما بتوسيع نطاق النتائج التى انتهت اليها العلوم الطبيعية واتخاذها دلائل هادية لدراسة الظواهر الاجتماعية . ومعنى ذلك استخدام مفهومات هـذه العلوم الطبيعية ونظريتها فى دراسة الظواهر الانسانية (محمد عارف ، مرجع سابق ، ص ٣٩٧) .

أما التيار الفكرى الثانى الذى اسهم بدور فى كيان الفلسفة الوضعية فقد تمثل فى الفلسفة الامبيريقية الانجليزية التى ازدهـرت فى انجلترا التى كانت تخضع فى هذه الفترة لحالة من الرخاء والحرية والوجود المستقر ، بذلك كانت هى وليست فرنسا ولا المانيا المكان الذى واصل فيه المنهج التجريبى نموه ، حيث ظهر فى شكل فلسفة امبيريقية وليس فى شكل اجراءات منهجية تميز المنهج العلمى فى العلوم الطبيعية .

ويمكننا ان نحدد اهم رواد هذه الفلسفة بأنهم جون لوك ، وبركلى وهيوم . فجون لوك يؤكد ان الافكار ليست داخلية فى العقل البشرى ، ذلك ان هذا العقل يكون عند المولد صفحة بيضاء ، أعنى فى حالة فراغ كامل ، وتتسرب اليه الافكار من خلال التجربة ، أما العقل فوظيفته جمع المادة الناتجة والتى أتت عن طريق الحواس . بذلك يصبح للعقل دور سلبى ، مع وظيفة ابداعية أو تنظيمية ضئيلة ، أو ربما لا شىء على الاطلاق . بذلك أسلم قياد المعرفة للحواس وللمناهج التجريبية ، حيث تتضاعف المعرفة اذا وسعت الحواس من تجاربها (Zeit lin, op, cit. P.) . هذه التجارب التى ينتظر العقل نتاجها ليؤلف بينها ، ويختزنها فى الذاكرة ، ويعطى الاسماء لها (Martindle, op. cit. p. 58).

وقد كان الاب بركلى هو فيلسوف الامبيريقية الثانى ، وهو وان كان قد سار على نفس خطوط الفلسفة الامبيريقية من حيث ان الحواس هى مصدر المعرفة الا انه جنح جنوحا مثاليا صوفيا حيث اكد فى مجمل فلسفته ان التجربة هى طريق الوصول الى المعرفة ، لكنه ان لم يستطع المـرء أن يبرهن على وجود العالم الفيزيقى من خلال التجربة فانه يمكنه ان يرد هـذا العالم الى افكار فى عقل الانسان والله .

غير ان امبيريقية اى من هؤلاء لم تكن فى صرامة امبيريقية دافيد هيوم

الذى كان مجيئه بمثابة الضربة القاتلة للتفكير الميتافيزيقى ، ويرجع فضل هيوم فى هذا الصدد الى تطبيقه لمبادىء الامبيريقيين فى غير ملاينة أو تسامح . وهو المبدأ الذى يؤكد أن العقل لا يستطيع ان يعرف اى شىء خارجه ، وانه ليس هناك شىء فى اى شىء ، وانه هو الذى يقدم الدليل المعبر عنه ، فليس لدينا ما يرسم استنتاجا يتعلق بأى شىء ، بعيدا عن الشىء الذى بين ايدينا موضع التجربة (Ibicl, P. 58) ، فهو لم يفزع كما فزع لوك من تطبيق هذه المبادىء على اشياء كالنفس الانسانية — فهى كغيرها من الاشياء — اذا لم أخبرها بالحواس فلا سبيل الى علمى بها ، وبالتالى فكل حديث عنها هراء ، ولا ينجيها ان نقول ان وجودها ينتج منطقيا عن كذا وكذا من المقدمات والمبادىء ، لان الاستنباط وحده يستحيل ان ينبنىء بجديد عن الوجود وكائناته (زكى نجيب ، مرجع سابق ، ص ٣٢) . ذلك دفعة الى ان يؤكد انه ليست لدينا أسس واضحة نوافق استنادا اليها على بعض الافكار التقليدية والهامة للغاية ، كالله ، والنفس ، والعالم الفيزيقى ، والسببية (Martindale, op. cit., P. 58)

استندت الوضعية فى قيامها اذن الى هذين التيارين الفكريين ، اللذين مهدا لقيامها . وبذلك لا نتفق مع البعض الذين يجتزئونها عن جذورها وينظرون اليها كرد فعل للفكر النقدى وان كانت قد قامت بهذه المهمة لاسباب أخرى . بيد اننا نستطيع ان نؤكد انه وان كانت الوضعية هى الرؤية المحدثة للمنهج الاستقرائى والفلسفة الامبيريقية الا ان لها مع كل منهما اتفاقات وافتراقات .

فمن المنهج العلمى الاستقرائى أخذت الوضعية الاجراءات العلمية المنهجية ، لكنها افترقت عنه فى انها لم تبن كيانها على مجرد هذه الاجراءات فقط ، وانما امتلكت النظرية التى توجه هذه المنهجية نحو المعطيات الملائمة لموضوع الدراسة ، فهناك نظرية أوجست كونت عن النظام والتقدم ، والانتقال من النظام الى التقدم بفعل الافكار ، ثم مجموعة القوانين التى تحكم حالات النظام والتقدم .. هذا بالاضافة الى انه مثل المنهج العلمى الاستقرائى ودوره فيما بعد عصر النهضة ، كان للوضعية موقفها ودلالتها السياسية فيما بعد الثورة الفرنسية . اذ افترقت أو فاقت المنهج

الاستقرائى بكونها امتلكت النظرية التى توجه هذا المنهج ، والدلالة السياسية التى تعد حلقة وصلها بالمجتمع .

أما الاتفاقات والافتراقات التى تقف فيها الوضعية مع النزعة الامبيريقية فهى وان كانت تتفق معها فى ان معطيات الواقع هى اساس المعرفة ، تلك التى تتراكم بتناولها عن طريق الحواس ، وان العقل ليس له الا دور منظم وسلبى لهذه المعطيات ، الا انها تفترق عنها فى ان انتقاء هذه المعطيات يتم فى اطار كلى وشامل ، بحيث تلعب هذه المعطاة دورا اكد على احتمالية ان تلعبه قبلا ، وهى أيضا تفترق عنها فى امتلاكها للنظرية الموجهة التى أشرنا اليها ، بالاضافة الى ان الوضعية لاتعطى مثل هذا التقديس الكامل للواقع وانما تؤكد كثيرا انه من الممكن أن يؤدى التدخل الارادى فى هذا الواقع الى تغيير مساره ، بل وربما تنظيم معطياته حتى يتفق والقانون الطبيعى ، ذلك اذا وقع من العوامل التى ادت الى انحراف هذا المسار .

الوضعية اذن قامت كامتداد لطراز فكرى ، الا انها قامت أيضا كمشروع فكرى يريد ان يطرح تنظيما معينا للواقع ، فنحن نعرف ان الهيجلية فى جانبها الثورى الهمت فلسفات الهدم والتدمير . وكان طبيعيا ان تقوم فترة يبدأ فيها الانسان فى تنظيم واقعه تنظيما مدروسا ، لا يرجع به الى الوراء ، وانما يتقدم به على اساس واضح وملموس ، بذلك ظهرت الوضعية فى العقد التالى لوفاة هيجل ، فقد نشر كونت دروسا فى الفلسفة الوضعية فيما بين عامى ١٨٣٠ — ١٨٤٢ ، كما نشرت فلسفة (شتال) الوضعية فى الدولة ، وبدأ شلنج محاضراته التى القاها فى برلين عن الفلسفة الوضعية (ماركيوز ، مرجع سابق ، ص ٣١١) .

بيد ان التأريخ للفكر الوضعى يوجب الاهتمام برائدها المبرز أوجست كونت . واهتمامنا به سوف ينصب على استجلاء موقفه من ثلاث قضايا هى علم الاجتماع ، ثم صياغته النظرية والمنهجية .

أما فيما يتعلق بعلم الاجتماع ، فنجده قد ظهر فى مناخ فكرى استدعى وجوده فعلا . ونعنى بالمناخ الفكرى المشكلات التى تشغل المثقفين فى حين

معين قد تجمعهم هذه المشكلات ، وقد تفضهم الى أقسام لكل منها رايه الخاص بشأنها ، ولقد كان هناك عاملان رسما مناخ هذه الفترة . العامل الاول هو درجة التقدم التى حققتها الرياضيات والعلوم الطبيعية وما انجزته ، والثقة التى ارتبطت بمناهج هذه العلوم (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢٣) ، أما العامل الثانى فهو تلك الفوضى التى اجتاحت المجتمع الفرنسى فى اعقاب الثورة ، حيث كانت هناك حاجة الى ترميم المجتمع ، حاجة الى استعادة استقراره ، وكان لكل جماعة رأى فى أسلوب استعادة هذا الاستقرار ، وهنا كما يؤكد (شتال) ان الناس حينما افتقدوا معتقداتهم التقليدية شعروا بالحاجة فى الاعتقاد بشىء ما . وظهر علم الاجتماع كدراسة موضوعية ومستقلة ، ذلك لان القيم التقليدية قد انهارت وليس هناك بدائل محددة لها . كانت التربة التى نشأ فيها علم الاجتماع مشبعة بمظاهر الانومى المنتشرة ، وظهرت موضوعية الوضعية السوسيولوجية حينما اضمر الناس الشك فى ان العالم الذى يعيشون فيه لا يتعاطفون معه وليس له القيمة التى تستحق الموت أو الحياة من أجله . (Gouldner, 1971, P. 103) .

فاذا كانت الظاهرة الاجتماعية جزءا من الظاهرة الطبيعية عامة ، واذا كان الانسان قد استكشف القوانين التى تحكم هذه الظواهر ، فانه بقى ان يستكشف امكانية فاعلية هذه القوانين فى عالم الانسان ، ولكى يتحقق ذلك ولكى نتنبأ بالمستقبل فيما يتعلق بالمجتمع فعلى التاريخ ان يتوقف عن ان يكون تاريخ أفراد بل تاريخ جموع انسانية ، حينما يتحقق مثل هذا التحول يصبح التنبؤ بالمستقبل أمرا ممكنا (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢٥) .

ولان كونت كان على اتصال بالعلوم الطبيعية والرياضية من خلال التحاقه بمدرسة البوليتكنيك ، وتتلمذه على اساتذة فى الرياضة والطبيعة ، فانه كان طبيعيا ان يولى وجهه شطر ما انجزته العلوم الطبيعية فى تناولها لظواهرها . ذلك ان التقدم الذى حققته حدا بالانسان فى هذه المرحلة ان يتساءل الا يمكن دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس اساليب دراسة الظواهر الطبيعية ، ايجوز لنا ان نجتزىء قسما من ظواهر عالمنا ونقول

ان هذا لا يخضع للمنهج ، واذا كان ذلك فعلا الا يجوز ان نحاول ، ومن هنا تركزت جهود اوجست كونت فى هذا الصدد فى أمرين ، الاول ان يجعل من العلوم العقلية علوما وضعية وثانيا ان ينسق بين شتى العلوم بما لها من قوانين ومناهج وما تتناوله من موضوعات للبحث فى بناء نسقى واحد (زكى نجيب ، مرجع سابق ، ص ٤٥) ، وتتسلسل العلوم فى هذا البناء النسقى ، الواحد تلو الاخر ويترتب عليه ، وبذلك رأى اوجست كونت امكانية ان تصاغ الفيزياء الاجتماعية ، على غرار الفيزياء الحيوانية ، والنباتية ، والسماوية (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٣٠) من التجمعات كالاتحاد ، والطبقات والمدن ، كذلك الدولة والحكومة . وهو يأسف للاثار المترتبة على الثروة الفرنسية من تقويضها للجماعات التى تتوسط بين الاسرة والدولة ، ثم يؤكد اهمية وطبيعية نظام الدولة او الحكومة ، بقوله قد يكون هذا النظام نظاما صناعيا ، الا انه يمثل تعديلا للنظام الطبيعى الذى تميل اليه كل المجتمعات ، فالحكومة ممكنة نظرا لوجود رغبة واسعة فى الحكم والقيادة بالاضافة الى ان كثيرا من الاشخاص يرغبون فى التخفف من عناء اتخاذ القرارات الضرورية بالنسبة لهم (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ص ٣٨ — ٣٩)

وتمثل ديناميكا التقدم الشطر الثانى من بنائه النظرى . وهو يحاول ان يثبت فى هذا الجهد تجاوز الفكر الوضعى للفكر اللاهوتى الدينى والفكر الميتافيزيقى ، فيؤكد مبدأ ان الفكر هو الذى يميز اى من هذه المراحل . وعلى ذلك ففى مرحلة اللاهوت نجد ان الانسان يجد لكل شىء علته وسببه بافتراض أن له ذاتا ، وبذلك فله ارادة وتصميم والغلبة للاقوى وانعكس ذلك على السياسة فى شكل السلطة المطلقة للحكم كانعكاس للاعتقاد فى قوى مطلقة فى ارادتها .

ثم جاءت المرحلة الثانية وهى المرحلة الميتافيزيقية . وفيها يحاول الانسان بدلا من رد علل الظواهر الى ارادتها الذاتية ، يحاول ان يرد كل ظواهر الكون الى مبدأ واحد او فكرة واحدة ، وهو يماثل المرحلة السابقة ، حيث بدلا من رد الظواهر الى ذاتها ومن ثم الى ذات واحدة هى الله ، هنا رد الى مبادىء ومن ثم الى مبدأ او فكرة واحدة مجردة .

وبينما منهج الرد والتفسير فى المرحلة اللاهوتية هو الخيال نجده فى المرحلة الميتافيزيقية حجاج منطقى يعلو من النتيجة الى مقدماتها أو يهبط من المقدمة الى نتيجتها (زكى نجيب ، مرجع سابق ، ص ٤٦) .

ثم تأتى المرحلة الوضعية ، حيث تحل تجارب العلماء ومشاهداتهم الحسية محل خيال اللاهوت وحجج الفلاسفة ، هنا بات على من يتكلم عن الطبيعة جادا ان يصل كلامه بالوقائع المحسوسة . هنا أيضا لم يعد الانسان يبحث عن (علل أولى) يرد اليها الطبيعة وما فيها ، بل يبحث عن قوانين تصور الاطراد الملحوظ فى الظواهر الطبيعية ، اى انه يبحث عن (العلاقات) الكائنة بين الظواهر الملحوظة ، والتى تجعل منها مجموعات من حوادث يطرد وقوعها كلما تحققت ظروف معينة ، ولا فرق عنده بين ان يكون موضوع البحث افكار الانسان ومشاعره ، او قطع المادة من حيث الوزن والصلابة ، لانه ينظر الى كل ما يعرض له نظرة موضوعية تحاول ان ترى على اى نظام يطرد حدوثه (نفس المرجع السابق ، ص ص ٤٧ — ٤٨) .

اما عن عوامل الانتقال من مرحلة الى اخرى ، أو بالاحرى عوامل التغير فنجد ان كونت يحددها على انها الافكار التى تعد نواتج للنمو العقلى ، كذا عدد السكان ، بالاضافة الى ان هناك عوامل قد تعجل من سرعة التقدم ، مما يؤدى الى خلق سرعات متفاوتة للتقدم ، هذه العوامل هى التفوق للجنس الابيض ، والفروق المناخية ، بالاضافة الى ان العمل السياسى يمكن ان يعجل بالتقدم ويعوقه ، هذا غير دور العباقرة الا انه يرجع مرة أخرى للايمان بفاعلية القوانين الطبيعية حينما يؤكد ان هؤلاء العباقرة يثيرون أو يتزعمون حركات مقدرة ومسطورة فى الازل (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ص ٤١ — ٤٢) .

وتشكل خصائص موقفه المنهجى مضمون القضية الثالثة ، ذلك ان الوضعية تؤكد على ضرورة اصطناع المنهج الوضعى ، فما هو المنهج الوضعى ، لم يفصل فيه كونت كثيرا وانما اكد على ضرورة تبعية المفهومات للوقائع ، وخضوع الظواهر الاجتماعية لنفس القوانين الطبيعية العامة

وان كانت القوانين الاجتماعية اقل جمودا وصلابة من القوانين الطبيعية (نفس المرجع السابق ، ص ٣٢) .

بيد ان هناك ثلاثة خصائص رئيسية تميز المنهج الوضعى فى عمومه. الاول نظرته التاريخية عند تقديره لقيمة الفكرة ، فالفكرة المعينة فى العصر اللاهوتى قد تكون صالحة فى مرحلتها . لكنها لا تعود صالحة فى المرحلتين التاليتين ، والفكرة المعينة فى العصر الميتافيزيقى لم تكن لتصلح فى المرحلة اللاهوتية الاولى ولن تكون صالحة فى المرحلة العلمية الثالثة وهكذا . أما الخاصية الثانية فهى حصر المعرفة النافعة فى حدود المعرفة التجريبية ، وكل علم لنا اليوم يتجاوز هذه الحدود قد يكون خطأ او صوابا ولكنه على أى حال علم لا يفيد وجانبها الثالث هو تقريبها بين الفكرة والنظرية وتطبيقها العملى ، فليس علما ما لا يمكن استخدامه فى التحكم فى مجرى الطبيعة ومصير الانسان (زكى نجيب ، مرجع سابق ، ص ٤٩) .

فاذا ما انقسمت النظرية الوضعية عند كونت الى جانبى النظام والتقدم فلابد وان نتوقع اجراءات منهجية تتسق مع جوانب النظرية هذه .

ويعد تفضيل الادراك الكلى على الجزئى أول الاجراءات المنهجية التى تؤكد عليها النظرة الوضعية . وبهذا الصدد يؤكد أوجست كونت ان الروح غير المعقولة للتخصص تلك التى انتشرت فى زماننا قد يكون من نتائجها ارجاع التاريخ الى تراكم عديم القيمة من الموضوعات غير المتصلة . أما لكى نوفر الخاصية العلمية الحقة ، فاننا يجب ان نجرى المقارنات التاريخية المختلفة لعصور الحضارة المختلفة فى علاقتها بالتطور الاجتماعى (Harris, op. cit. P. 62) وفى موضع آخر يؤكد ان المظهر الرئيسى للعلم السياسى يفترض صراحة على عكس العادات الفلسفية السائدة ، ان نتوقف عن النظر الى العادات الاجتماعية بصورة مطلقة او مستقلة عن العناصر الاخرى ، ويصر على أنه يمكن معرفتها فقط بالنظر الى العناصر الاخرى (Ibid, P. 63) وهو هنا نجده يواجه صياغة احد المبادىء المنهجية الهامة فى الاتجاه الوظيفى ، وهو ضرورة التأكيد على الادراك الكلى ، وحتى اذا ما تناول الباحث أى من

الاجزاء النسقية ، فلابد ان يكون ذلك بالنظر الى كلية النسق الكائن بـــه هذا الجزء .

أما الخاصية المنهجية الثانية فتتمثل فى صياغة اوجست كونت للنماذج المثالية ، وهو فى ذلك يسبق ماكس فيبر (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٣٥) ، وان كنا نجد ان وضعيا آخر وهو اميل دوركيم يتخلى عن هـــذا النموذج المثالى ، ويصوغ نموذجا متوسطا اكثر واقعية واكثر اقترابا مـــن الفكر الوضعى . والحق انه لموضع نقد يوجه الى أوجست كونت اذ كيف يقوم بصياغة نماذج مثالية قد تحتوى صفات او خصائص او رموز لمعطيات ليس لها وجود واقعى ، لذلك قد يكون من الملائم ان تكون النمـــاذج المثالية زبيبة الفكر المثالى وفى هـــــذا جنوح كونتى مثالى ، يبحث عمـــا ينبغى أن يكون ، بينما تنادى الوضعية ان يعكس كرنا ما هو موجود ومائل ، ومائل .

أما الاجراءات المنهجية التى أوصى أوجست كونت باتباعها للوصول الى القوانين التى تحكم تفاعل المعطيات وعلاقاتها فهى اربعـــة . المنهج التاريخى ، المقارنة ، الملاحظة أو التجربة .

ولقد اهتم أوجست كونت بالمنهج التاريخى لان هذا المنهج عنـــده يساعد على الوصول الى القوانين التى تحكم التغير المستمر للفكر الإنسانى كما تبدى ذلك فى قانون المراحل الثلاث ، وهو يختلف عن المؤرخين فى انه لا يبحث عن العلل السببية للظواهر وان كان يركز اساسا على دراسة العلاقات بين هذه الظواهر .

أما الملاحظة فقد نادى بأن تحل محل التأمل وهى تحمل ضمنيا ملاحظة النظـــام والتأكيـــد عليه بدلا من الخروج عنه (ماركيوز ، مرجع سابق ، ص ٣٤) . ويؤكد أوجست كونت ضرورة ان توجه الملاحظة بنظرية ، هذا بالاضافة الى قيام النظرية بتفسير ما قد لوحظ ، فالحقائق لا تستطيع ان تتحدث عن نفسها . ذلك لانه بدون النظرية لا نستطيع الافادة منها أو حتى نعى دلالتها ، فالحقائق يجب ان ترتبط على الاقل بافتراض اساسى يتعلق بقوانين اجتماعية معينة خاصة بالنمو أو التطور (Zeitlin, op. cit. P. 77)

أما التجربة فهو لا يقصد تلك التى تستخدم فى العلوم الطبيعية لان هذا مستحيل فى العلوم الانسانية وانما ما يقصده هو امكانية اقامة ملاحظة مضبوطة ومنظمة ، كما أكد على امكانية عقد المقارنات المثمرة بين المجتمعات الانسانية والحيوانية ، أو بين المجتمعات التى تعيش معا زمنا بعينه ، أو بين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٣٤) . بيد انه لابد وان نشير الى ان اميل دوركيم فيما بعد — وهو رائد وضعى تال — قد اختزل الدراسة التاريخية كلية من البرنامج الوضعى واحل محلها المقارنة بين نماذج بنائية محددة .

هذا بالاضافة الى انه قد قال بالنسبية ، اذ نجده يؤكد مرارا على ضرورة الاستعاضة بالنسبى عن المطلق المثالى (هربرت ماركيوز ، مرجع سابق ، ص ٣٨) . وهو حينما يقول بالنسبية فانه يفترض انسجاما مقدرا بين الجانب الذاتى لعلم الاجتماع (المنهج) وبين جانبه الموضوعى (المضمون) ذلك أن الوضعية تفترض ان كل الاشكال والنظم مؤقتة لانها ستتحول بتحول وتقدم الثقافة العقلية ، الى اشكال أخرى تناظر القدرات العقلية لنمط أكثر تقدما . على أن طابعها المؤقت ، وان كان علامة على نقصها الا أنه فى ذات الوقت علامة على حقيقتها (النسبية) فتصورات الوضعية نسبية لان الواقع نسبى (نفس المرجع السابق ، ص ٣٩) .

وتسلم النسبية الى الموضوعية ، ذلك انه اذا كان العلم ، فى نظر كونت ، هو ميدان النسبية النظرية ، المنعكس عن نسبية واقعية ، فان ذلك يستوجب استبعاد احكام القيمة . فعلم الاجتماع لا يستحسن الوقائع السياسية أو يستهجنها . بل ينظر اليها . على انها مجرد موضوعات للملاحظة ، وحين يصبح علم الاجتماع علما وضعيا ، ينفصل عن أى اهتمام (بقيمة) أى شكل اجتماعى معين . فسعى الانسان الى السعادة ليس مشكلة علمية ، وكذلك الحال فى مسألة افضل تحقيق ممكن لرغباته ومواهبه . ويفتخر كونت بانه يستطيع بسهولة أن يعالج مجال الفزياء الاجتماعية بأكمله دون ان يستخدم لفظ الكمال مرة واحدة بل يحل محله دائما لفظ علمى بحت ، وهو النمو أو التطور (نفس المرجع ، ص ٣٣٩).

بيد اننا نجد الفن جولدنر فى مؤلفه الاخير يؤكد انه اذا كانت الوضعية تؤكد على الموضوعية ، فان الموضوعية ذاتها ليست سوى ايدلوجيا هؤلاء المغتربين والذين يفتقدون اية قوة من الناحية السياسية (Gouldner, op. cit. P. 103) ورغم ان ذلك سنعالجه فى علاقة الايدلوجيا بالنظرية السوسيولوجية ، الا اننا نود أن نؤكد انه اذا كانت الاستقراطية مسلحة بالمثالية المحافظة تطالب برد الامور الى ما كانت عليه قبل قيام الثورة الفرنسية ، ولذا كانت الطبقات الثورية تنادى بالمضى فى طريق الثورة لاكمال تحطيم ما هو قائم ابتغاء صياغة بناء جديد . لكن ما هو المحك الذى نستند اليه فى التبرير المنطقى والواقعى المعقول لادعاءات أى من الفريقين ، اليست كلية المجتمع فى مرحلة تاريخية معينة ، اعنى فى موقف تاريخى محدد وان احتياجاته وتوافقه مع الشروط البيئية المحيطة هى المحك ، فالحكم على ذلك ليس حكما سياسيا ، يصدره أى من الفريقين ، ولكنه فى اساسه حكم علمى يبنى على محكات الموضوعية وعدم التحيز . اذن فليس القائمون بهذا التحديد — جمهرة الباحثين والعلماء — فئة منسحبة لاحول لها ولاقوة ، وانما تؤكد انها فئة عرفت دورها فتقدمت اليه ، ولم تتخاذل عنه بالانضواء تحت اية دعوى سياسية

ثالثا : الايدلوجيا ونظرية علم الاجتماع :

تعتبر قضية العلاقة بين الايديولوجيا ونظرية علم الاجتماع من القضايا العامة التى تحتاج الى الدراسة . ذلك انه قد كثر الجدل والحوار فى السنوات الاخيرة ، حول موقف الباحث من الالتزام العلمى والايديولوجى ، أو الايديولوجيا ودورها فى نشأة النظرية السوسيولوجية . الا ان هذا الجدل والحوار لم يصل الى نتائج محددة ودقيقة . ذلك لانه فضل ان يدور حول القضية من الخارج ، وقد كان الزم له ان يغوص بداخلها ليسبر طبيعة علاقاتها من الداخل ، هذا الى جانب عدم التزامه فى تناوله لهذه القضية — على خطورتها — التزاما منهجيا يصل الى نتائج موضوعية واضحة ودقيقة ، وكانت النتيجة ان انطلقت بعض الشعارات التى تؤكد احيانا ان علم الاجتماع يجب ان يكن علم اجتماع سياسيا وان القائمين

به يجب ان لا يركزوا كثيرا على النظرية والمنهج ، فهذا مرض عضال اسمه الحصر المنهجى . ومايشترك فيه كافة هذه الشعارات يتمثل فى اهمالها الكامل لعلم الاجتماع الاكاديمى نظريـــة ومنهجا وعـــدم التقـــدم لتطويره والاسهام فيه ، ذلك ما جعل الفن جولدنر يضع عنوانا لمؤلف حديث لـــه يعبر فيه عما يواجه علم الاجتماع بانها الازمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى ، ويصورها ر . د . ليانج منظر راديكالية الشباب بتأكيده (انه ما مـــن احد يستطيع ان يبدا فى التفكير أو الشعور أو العمل الان الا ابتداء من اغترابه ... اننا لا نحتاج الى النظرية الى حد كبير طالما ان الخبرة هى مصدر النظرية) (Gouldner, Op. cit. P. 8) .

واذا كنا قد ناقشنا بناء النظرية ، واذ كنا قد ناقشنـــا أهم التيارات الاساسية التى عاصرت نشـــاة النظرية الاجتماعيـــة . فاننا ســـنحاول مناقشة الايديولوجيا فى طبيعتها وخصائصها ، ثم علاقتها بالقضايا العلميـــة النظرية السوسيولوجية ثم مناقشة هـــذه العلاقة التى طرحت حـــول الايديولوجيا والنظرية .

ولمناقشة الايديولوجيا من حيث نشأتها وطبيعتها ، نجـــد انه مـــن الضرورى طرح تعريف لها ، الا اننا فى مناقشتنا مسألة تعريفها نواجه بعدة تعريفات . اذ يشير هذا اللفظ احيانا الى نســـق من الافكار بشـــأن الظواهر ، ولا سيما ظواهر الحياة الاجتماعية ، أو هى طريقة التفكير المميزة لطبقة أو فرد . أو ان اللفظ قد يشير الى علم الافكار ، اى دراسة اصل الافكار وطبيعتها ، ولا سيما فى مذهب كرنديك الذى استمد جميع الافكار من الاحساس وحده ، أما عند كارل ماركس وانجلز الذى اثار مشروعها النظرى الاهتمـــام بالايدلوجيا . حيث أن مفهـــوم الايدلوجيـــا عندهم لايشمل نظرية المعرفة السيـــاسية فحسب ، بـــل يشمل ايضـــا الميتافيزيقا والاخلاق والدين وأيـــة (صورة للوعى) تعبر عـــن المواقف والالتزامات الاساسية لطبقة اجتماعية (هنرى د . ايكن ، ص ٢٣) ، أما تالكوت بارسونز فيعرف الايديولوجيا بانها نسق من الافـــكار الموجهـــة أو التى لها اصل امبيريقى ، تلك التى تمنح الانســـان تفســـيرا للطبيعـــة الامبيريقيـــة للجماعة وللمواقف التى تقف فيها ، والعمليات التى نمت بهـــا

حتى بحالتها الراهنة . ثم الاهداف التى يتوجه اليها الاعضاء جماعيا ؛ كذا علاقتهم بمسار الاحداث فى المستقبل (بارسونز ، ١٩٥٢ ، ص ٣٤٩) .

ويكشف التفحص الدقيق لهذه التعريفات ، ان الايديولوجيا تتعلق بكيان جماعة ، وانها تتعلق بتحقيق اهداف هذه الجماعة ، سواء كانت طبقة أو تجمعا من شكل آخر ، وان لها علاقة بمستقبل هذه الجماعة ، وان جميع افرادها لابد وان يشاركوا فيها . ويصوغ هارى جونسون أهم عناصر الايديولوجيا ، بأنها تتكون من :

١ ــ الافكار الموافق عليها بصورة شائعة تلك المتعلقة بالبناء ، وبالعمليات الداخلية (بما فيها التغيرات التى قد تقع . والموقف العالى للمجتمع) .

٢ ــ الافكار الشائعة الموافق عليها والمتعلقة بتاريخ المجتمع .

٣ ــ التقويمات الشائعة المتعلقة بالحقائق الموافق عليها .

٤ ــ القيم والاهداف المتفق عليهما بصورة شائعة بالنسبة للمجتمع . الا ان هذا لا يعنى ان يفترض تحديد ايديولوجيا المجتمع على انه تحديد كامل ومتماسك ومتفق عليه بصورة شاملة بل على انه نسق من العقائد والافكار . (Johnson, 1961, PP. 581 - 588)

يعنى ذلك انه من الممكن وفقا للتحديدات السابقة ان توجد فى المجتمع الواحد مجموعة من الايديولوجيات . فكل جماعة ذات ثقل ما ، أو حزب سياسى ، أو منظمة مهنية أو نادى اجتماعى يمكن ان يكون له ايديولوجيا معينة . بذلك يتأكد لدينا ان الايديولوجيا غالبا ما تعبر عن مشاعر اعتقاد عاطفية وخاصة تلك التى تربط الفرد بالجماعة . وهى الى جانب استنادها فى نشأتها الى حقائق امبيريقية الا انه عادة ما يدخلها عنصر اللاعقلانية أو الصوفية كالحال فى الدين . والحق ان هناك بعض الايدلوجيات التى نجد لها أصولا فى الصوفية والحدس والالهام المبالغ فيه . (Bredemier & Stephenson, 1970, P. 310)

وترتبط الايديولوجيا وظيفيا بكيان الجماعة وتماسكه ودعمه والحفاظ عليه والدفاع عنه أمام المجتمعات أو التجمعات الاخرى ذات الايديولوجيات المضادة . فلادائها الوظيفى علاقة بتكامل المجتمع أو الجماعات الفرعية ، ثم انها قد تحدد للجماعة اتجاها معرفيا وادراكيا مشتركا تجاه اهداف معينة ثم وسائل تحقيق هذه الاهداف . ثم انها تحتوى على الرموز التى تدعم الجماعة باستيعاب الاخيرة لها بالاضافة الى ان الاولى تعد تجليات جمعية لتفاعل الجماعة ، من هنا وجدنا ان الارتباط بالايديولوجيا يكون اقوى ما يكون فى حالات الصراع الذى قد تواجهه الجماعة سواء كان صراعا داخليا أو خارجيا (Johnson, Op. cit. P. 590) ، ذلك لان الايديولوجيا تكون هى السلاح أو الاساس الذى تستند اليه الجماعة لكى تتجاوز حالة الصراع هذه وتحقق التكامل والاستقرار من جديد بعد ان تحسم هذا الصراع لصالحها .

والى جانب انه لكل جماعة أيديولوجيتها الخاصة ، بالاضافة الى امكانية تواجد عديد من الايديولوجيات داخل المجتمع الواحد فان هناك انواعا من الايديولوجيات فهناك الايديولوجيا الثورية والايديولوجيا الرجعية وكذا الايديولوجيا المحافظة ثم الايديولوجيا المضادة .

اما الايديولوجيا الثورية أو الراديكالية فهى تلك التى تهاجم النظام الاجتماعى الكائن أو احد جوانبه ، وبذلك فانها يجب أولا ان تقدم نقدا للجوانب التى تهاجمها ثم برنامجا بديلا لما هو موجود ومن ثم فهى تؤكد بشدة على الخضوع لهذا البرنامج الراديكالى ، وللاعضاء القائمين بالحركة الثورية (Ibid. P. 606) ، الا انه بالرغم من ان الجماعة الثورية تعمل على الاطاحة بالنسق القائم ، أو كثير من جوانبه ، فاننا نلاحظ أن الايديولوجيا الثورية تؤكد على بعض القيم السائده والموجوده وهى بذلك تشترك مع الايديولوجيا المحافظة فى الاتفاق على هذه القيم ». (Ibid. P, 589).

وتعد الايديولوجيا الرجعية شكلا خاصا كالايديولوجيا الثورية ، وليس من الضرورى ان تقوم هذه الأيديولوجيا بأنها سيئة أو حسنة . بل انها ببساطة ايديولوجيا تعمل على دعم العمل على استعادة بعض ملامح

النظام الماضى . اذ انه عقب كل ثورة ، عادة ما نجد ممثلى الجانب المنهار والذى حطمته الثورة يؤيدون الرجوع الى الاشكال النظامية التى اطاحت الثورة بها .

أما الايديولوجيا المحافظة فهى الايديولوجيا التى تحاول الحفاظ على ما هو كائن وتطلب الخضوع له ، الا اننا نؤكد أن الخط الفاصل بين صفات الثورية أو المحافظة فيما يتعلق بالايديولوجيا انما هو نسبى ذلك لان مصطلحات الثورية أو المحافظة عادة ما لا تشير الى مضمون الايديولوجيات ، ولكنها تشير الى علاقاتها بالنظم الاجتماعية السائدة . فالماركسية اللينينية هى الايديولوجيا المحافظة فى الاتحاد السوفيتى بينما هى الايديولوجيا الثورية فى الولايات المتحدة ، ولذلك فاننا يمكننا ان نؤكد ان الأيديولوجيا المحافظة تبرر وتدافع عن النظم الموجودة وبخاصة تلك النظم التى لها علاقة بالحكومة ، والاقتصاد ، والبناء الطبقى ، تلك العناصر التى تهاجمها الايديولوجيا الثورية .

الا انه يجب ان يظل مؤكدا ان الايديولوجيا الثورية اذا ما ظهرت فى نفس الاطار أو السياق البنائى الذى تدعمه الايديولوجيا المحافظة ، فانها دائما ما ترتكز على بعض عناصر وقيم هذه الايديولوجيا المحافظة ، التى انبثقت عنها ، وهذا ما نجد له افضل توضيح فى نشأة أيديولوجيا الحركة الثورية الكارزمية من داخل نفس السياق الذى تدعمه الايديولوجيا المحافظة،وهذا ما حدث فى روسيا والمانيا والصين (Parsons, 1951, P, 506)

أما الايديولوجيا المضادة ، فهى الايديولوجيا التى تبرر وجهة نظر وانماط الجماعة المنحرفة ولكن بدون ان تحاول العمل على تغيير المجتمع ككل (Johnson, op. cit. P. 389)

يتأكد لنا مما سبق ان الايديولوجيا ذات صلة عضوية ببناء اجتماعى محدد تنبثق عنه ، وتتشكل بملامحه واهدافه ، وتعمل على دعمه والدفاع عنه .

أما عن القضية الثانية والثالثة ، وهى تلك المتعلقة بالعلاقة بين الايديولوجيا والعلم ، وضرورة الاستناد الى محكات البحث المنهجية لتحديد

خصائص هذه العلاقة فنؤكد مبدأ أنه فيما يتعلق بالقضيـــة الثانية نجد أن هناك فريقين من العلماء . حيث يؤكد الفريق الاول أن الايديولوجيا لها صلة اساسية بالنظرية السوسيولوجية بل انهـــا هى التى ادت الى نشـــأة النظرية السوسيولوجية ، ومن هذا الفريق نأخـــذ اثنين هما رواد هـــذا الاتجاه وهما ارفنج زايتلن والفن جولدنر .

وتتضح وجهة نظر أرفنج زايتلن كما حددهـــا فى كتابه (الايديولوجيا ونشأة النظرية السوسيولوجية) فى انه يعتبر ان الفكر الوضعى قام ردا على الفكر النقدى ، ومن هنا فانه يصور موقف كل من دوركيم ، وباريتو وموسكا على انها كلها تمثل مشروعات نظرية قامت للرد على شبح الفكـــر الماركسى . يصور ذلك عبارته عن الحوار مع الشبح The debate with the ghost أما العـــــالم الثـــانى ، فهـــــو الفـــن جولـــدنر الـــذى تجـــاوز بالتطـــرف موقف أرفنج زايتلن الى حد كبير اذ يؤكد محاولا تصوير موقف اليســـار الجديد ان هؤلاء الشباب يرون فى عالم الاجتماع كما يرون الشيوخ على انهم اشياء مستغلة ومنافقة ، وعلى اننا لم نلاحظ شهداء بين علمـــاء الاجتماع . أن الشباب الراديكاليين يأسون من الحزن لانهـــم لا يـــرون فى عالم الاجتماع رجلا كاملا يتسق مع قيمه ، انه يدرس الفقراء الا انه لا يشارك أوجاع هؤلاء الناس الذين يدرسهم والذى جعل وجودهم ممكنا . انك من الصعب ان تجد عالم اجتماع ذا شهرة منجذبا للتدريس فى كليات الزنوج فى الجنوب ، وما يصدق على عالم الاجتماع ينسحب على النظرية الاجتماعية ، حيث يراها على انها تزييف لما يتبدى له فى الواقـــع ، ان الراديكالى الشاب عادة ما ينظر الى النظرية الاجتماعية وعلم الاجتماع الاكاديمى على أنهما يجعلان الحياة غامضة ، وانها أيديولوجيا ذات تحيـــز محافظ فى خدمة دعم الحالة الراهنة . (Gouldner, op. cit. P. 9)

ويتضح التطرف فى موقف الفن جولدنر ليس فى مهاجمته لنظريـــة علم الاجتماع التى قد تتأثر الى حد ما بشخصية المفكر المنظر ولكن مـــن مهاجمته لمناهج علم الاجتماع وادواته لجمع المعطيات متهما اياها بالتحيز الايديولوجى أيضا .. فهو يؤكد ان وجهة نظر العلماء فى المطالبة بحصر وجمع

اكبر عدد من البيانات بل وانشاء نسق للحصر والتقدير يسمح بالكشف عن التغيرات فى عضوية التنظيمات ، أو الالتزام الدينى أو الحراك المهنى تعبر عن وجهة نظر مجتمع قاس وتسلطى يعرف كل شىء عن افراده ، وان المناهج التقليدية للبحث الاجتماعى عادة ما تؤدى بل وتنمى النزعة التسلطية الضاربة العمق بل انها عادة ما تمهد السبيل لقيام احتكار البشر للناس .

وهو يتوافق مع موقف شيرسى ارجرز الذى يؤكد ان الرضا بمحكات البحث الصارمة الدقة قد يؤدى الى خلق عالم للموضوع يتحدد فيه سلوكه ويضبط ويقوم ، ويسيطر عليه ، ويقرر الى الدرجة التى يمكن ان نقارنه فيها بالعمال الذين تحكمهم ظروف خط ــ التجميع ، بمعنى أن نظم جمع البيانات أو أدوات البحثعادة ماتفترضوجود بلوتستخدم نظامما للضبط الاجتماعى . وأنه ليس فقط أن البيانات التى يحصلون عليها تستخدم بواسطة انساق الضبط ، ولكنها فى ذاتها أنساق للضبط .

ذلك ان ايا من ادوات البحث تصوغ بعض الافتراضات حول كيف يمكن الحصول على البيانات من الناس ، وماذا يتبع معهم من أجل الحصول عليها . وهذا يرتكز بدوره على افتراضات معينة تتعلق بمن هم البشر وما كينونتهم . والى الدرجة التى تتشبه فيها العلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية ، فانها تتضمن الافتراض الرئيسى ان الناس أشياء يمكن ان يعاملوا ويضبطوا بنفس الاسلوب التى تضبط به العلوم الاخرى المادة غير البشرية ، فالناس موضوعات تعرض لسيطرة وضبط المجرب لاغراض لايحتاج ان يفهموها او حتى يرضوا بها . مثل هذا العالم الاجتماعى سوف يندفع بلا تفكير نحو شراء كميات من البيانات على حساب الكبرياء الانسانى وكرامته .

ان المنهجية ينظر اليها من وجهة نظر معينة على انها مسألة فنية منفصلة بصورة تامة ومطلقة عن أية أيديولوجيا ، اذ يفترض انها تتعلق فقط بطرق استخراج المعلومات عن العالم ، أو جمع البيانات ، أو صياغة استبيان ، أو استخراج العينة ، أو تحليل البيانات ، الا انها شىء اكبر من هذا ، حيث عادة ما تختلط بالفروض الايديولوجية الطنانة عن طبيعة العالم ، وما هو عالم الاجتماع ، وما هى طبيعة العلاقة بينهما .

أما الفريق الاخر فهو الذى يرى فى علم الاجتماع وسيلة لفهم العالم وذلك تمهيدا لتحقيق ظروف اكثر ملائمة يمكن أن يعيشها الانسان . ويؤكد هذا الفريق أن العلم علم ،وأن هذه العلاقة المدعاة بين الايديولوجية والعلم علاقة زائفة ولا سند لها من الحقيقة ، ونأخذ منهم على سبيل المثال لا الحصر اثنين ، أولهما مارتندال ، وثانيهما ريمون آرون .

أما دون مارتندال فيؤكد ان قضية ان علم الاجتماع فى البداية كان جزءا من أيديولوجيا محافظة ليس هجوما على أو دفاعا عن علم الاجتماع ، ذلك أنه طالما يقال على نطاق ما أنه أيديولوجيا ، فان هذا النطاق يحرم من صفة كونه علما ، ذلك لان طبيعة العلم تؤكد على ان الموافقة النهائية لاى تعميم ترتكز على المحكات الموضوعية التى يتضمنها النظام العقلى ثم يؤكد ان علم الاجتماع يستطيع ان ينمو ويبقى فقط الى الدرجة التى يتمكن فيها من صياغة معايير علمية ومهنية .

وبصراحة اكثر وضوحا يؤكد ريمون أرون انه من الضرورى ان نميز بين النظرية والمنهج العلمى المتصل بالواقع الاجتماعى عن الايديولوجيات أو التصورات الخاطئة والمتحيزة والناتجة عن المواقف الطبقية التى تحرم الانسان من رؤية الحقيقة ، بل انه من الضرورى أيضا ان نقيم فواصل بين انماط التفسيرات العقلية المختلفة وان ندرس علاقتها بالواقع الاجتماعى ثم يؤكد انه لكى نتجنب الخلط والعمومية فاننا يجب ان نؤكد على نقطتين ، الاولى : ان هناك نطاقات يصل فيها الفكر البشرى الى الحقيقة الصادقة للجميع ، وليست الحقيقة الصادقة لطبقة واحدة ، والثانية : ان هناك نطاقات يكون النتاج العقلى فيها له قيمة بالنسبة للبشر فى كافة المجتمعات على حد سواء (Aron. Op. cit. P. 176) وهو بذلك يؤكد على العلم ضمن هذه النطاقات .

وبعد الفراغ من سرد هذه الآراء المتضادة ماهى اذا طبيعة هذه العلاقة، الحق أننا نرفضها لامور كثيرة الا أننا سنصنف أسباب الرفض الى اثنين ، الاول ، يتعلق بالتفنيد النقدى لكل من قالوا بوجود هذه العلاقة وهو مانسميه الجانب السلبى فى وجهة نظرنا ، أما الايجابى ، فلسوف نحدد فيه الخصائص الفارقة التى تجعل من المستحيل قيام هذه العلاقة ،

أما الجانب السلبى فنتناول فيه مبدأ موقف ارفنج زايتلن فنحن قد عرضنا فى البند ثانيا أن الوضعية كانت امتدادا للمنهج الاستقرائى التجريبى الذى حمل لواءه فرنسيس بيكون وروجر بيكون ، وايضا كامتداد للفلسفة الامبيريقية الانجليزية التى لها جذورها أيضا فى هذا المنهج ، وانه امام فوضى ما بعد الثورة الفرنسية رأى فريق من المفكرين ان يوسع نطاق المنهج العلمى لكى يحتوى على دراسة الظاهرة البشرية ، فلم تكن اذا موقفا ضد الفلسفة النقدية ، واذا كانت الفلسفة النقدية قد اسست موقفها الفكرى على تصور الكل المتكامل الممكن والذى ما زال كامنا ، فان الفلسفة الوضعية أو النظرة العلمية قد اسست موقفها على اساس تناول الكل الكائن بالدراسة باكتشاف عيوبه والتدخل ارادیا للبحث عن مايمكن يصلحه . هذا بالاضافة الى أن الفكر السوسيولوجى المحدث وأن كان يؤمن بالعلاقة السببية بين المتغيرات الا انه قد أكد على ضرورة تدخل متغيرات وسيطة . بل انه قد رفض رؤيا المتغير المستقل والتابع فمثلا صياغة التصور الدوركيمى اسهمت فيه متغيرات كثيرة ، اسهمت فيه الوضعية . والمثالية الهيجلية . واسهمت فيه المثالية الالمانية عند كل من زيمل وتونيس بل واسهمت فيه الى حد كبير معطيات الاثنوجرافيا الذى اقام بناء عليها نماذجة ومقارناته ، فلم تكن الاشتراكية اذا هى المتغير الوحيد الذى اثار الفكر الدوركيمى لكى ينسج نفسه حول رفضها بل ان هناك من الدراسات ما يؤكد على ان طريق دوركيم الى علم الاجتماع كان يمر عبر اهتمامه المبكر بالاشتراكية (أحمد أبو زيد ، ١٩٧٠ ، ص ص ١٤١ — ١٦٥) .

أما فيما يتعلق بنقد الفن جولدنر ، بخصوص تشكيل المعرفة التى قد تجمع عن البشر فى المجتمع تمهيدا للتدخل فى حياة هؤلاء البشر ، أو ان القواعد المنهجية التى طورها البحث الاجتماعى الى جانب انها تخدم نسق الضبط فهى تشكل ايضا نسقا آخر للضبط ، أو ان علماء الاجتماع لا يشاركون فى قضايا المجتمع كظلم الزنوج او عدم الوقوف الى جانب الفقراء .

بداءة اذا تفحصنا هذا النقد الذى اثاره الفن جولدنر نجد ان هناك اتهاما ضمنيا ، بأن هناك ثمة رابطة عضوية تجمع رجال العلم والحكومة بهدف الاستغلال والسيطرة على جماهير الشعب ، قد يكون ذلك موقف

علماء الاجتماع الامريكيين الا ان هذا الموقف لايجب ان يحكم على اساسة على علماء الاجتماع عامة ، فالخاص لا ينسحب أو يصدق على العام . هـذا بالاضافة الى ان مهمة عالم الاجتماع هى تشخيص المشكلة وتحليلها لاسبابها ، والتفسير أو التنبؤ بمتتالياتها اذا ما استمرت هذه الظروف او طرأت ظروف جديدة من نوع معين ؛ أما عن استخدام هذه المعرفة ضد العامة فهذا ليس مسئولية العلماء وانما مسئولية من اساءوا استخدام معرفة العلماء ، ان مشكلة الزنوج أو الفقراء فى امريكا لا تطلب من عالم الاجتماع ان يشترك بصفته مهيجا ثوريا بقدر ما تتطلب منه أن يرد تعقد هذه المشكلة الى أسبابها الحقيقية ، ولقد يكون مدعما لقولنا ان تحليل روبرت ميرتون العميق والموضوعى لظاهرة الانومى وعلاقتها بالتناقض فى بناء المجتمع الامريكى اكثر فعالية لصالح الفقراء الزنوج الذين اشار اليهم جولدنر أو الشباب الراديكاليون من أغلب المقالات التى كتبها الثوريون فى هذا النطاق .

أما القول بان القواعد المنهجية تشكل نسقا جديدا للضبط فالحق انه قول يجانبه الصواب ، ذلك لان مجموعة القواعد المنهجية يلتزم بها الباحث وليس المبحوثون ، بل ان البحث الاجتماعى قد طور من التكنيكات ما يجعل مهمة جمع المعطيات مهمة لا يشارك فيها المبحوث بجهد ارادى واعى ، كالملاحظة بالمشاركة وتحليل المضمون والمعالجات الاحصائية . ولنقل مع الفن جولدنر ، هب انها تتطلب ضبطا تجريبيا يخلق موقفا يماثل الموقف الطبيعى الى حد ما ، اليس من الافضل الحكم عليها بالنظر الى غرضيتها او هدفها بدلا من خصائصها كوسيلة ، على ان يكون فى الاعتبار دائما النظر الى هدفها من خلال المنظور العلمى الموضوعى لا من خلال رؤية أيديولوجية معينة .

اما الجانب الايجابى الذى نورده تدليلا على عدم وجود هذه العلاقة بين الايديولوجيا والنظرية السوسيولوجية كنظرية علمية ، وحتى ان وجدت فى لحظة معينة فان العلم كنسق يمتلك من الميكانيزمات الذى يلغى بها اية وحدات معرفية لا تحمل طابعه أو خاصيته .

بداءة نؤكد ان الايديولوجيا موقف جماعى يشترك فيه كافة أعضاء الجماعة او اغلبيتها . ويرتبط موقفهم هذا بتحقيق اهداف تتعلق بكيان الجماعة ، وان

مصدر تدعيمها فى الافراد عادة ما يكون من خلال قادة المجتمع أو من خلال التطبيع الاجتماعى أو من خلال الاعلان والدعاية ووسائل الاتصال العامة . أما العلم فهو موقف خاص لمجموعة محددة ومتميزة من العلماء . أما اهداف هذا الموقف فتتعلق أساسا بالعلم وكيانة كنسق ادراكى ؛ بمعنى ان بحث العلماء عادة ما يتناول قضايا علمية أساسا تمثل ثغرات تحتاج الى تركيز جهودهم لتوضيحها ، بذلك يصبح جهدهم فى معظمة فنى ومتخصص . الا أن هذا لا يمنع أن يكون لمعرفتهم التى يتوصلون اليها استخداما علميا لصالح المجتمع ورفاهيته . بل لايمنع ان تستخدم الأيديولوجيا بعض القضايا العلمية لتأييد موقفها . الا أن هذا لا يعنى ان هذه القضايا العلمية قد صيغت لغرض ايديولوجى .

أما الفارق الثانى فيكمن فى ان الايديولوجيا عادة ما تحرف أو تشوه الحقيقة الاجتماعية الى حد ما ، بالاضافة الى ان الانطباعات العامة ليست خاطئة كلية ، حيث تختلف نسب الصدق والخطأ من واحدة لاخرى . ذلك بوجب النظر الى كل أيديولوجيا على حدة ؛ ويعد الصدق المقنن ، مهما كان ناقصا ، افضل معرفة يمكن الحصول عليها فى العلوم الاجتماعية والعلوم الاخرى ، واحيانا ما يمكن توضيح التحريف فى الايديولوجيا بسهولة ، الا أنه غالبا ما يكمن الاختلاف بين القضية الايدلوجية والقضية العلمية فى نفس النطاق فى ان القضية العلمية اقل ثقة بنفسها ، بل ومعرضة لتعديلات اكثر . فالعالم تجريبى أما الايديولوجيا فهى نوع من الاعتقاد أو الدجماطيقا . وبصورة مثلى ، فالعالم شكاك دائما ولا يكفية الدليل السببى ، بينما الايديولوجيا عادة ما تحتوى كبرهنة لذاتها على حقائق ذات طبيعة انتقائية . فالشخص الايدلوجى يبحث عن الحقائق التى تثبت عقيدة اختارها ووافق عليها سلفا ، أما العالم فيرجىء الحكم حتى يستقصى اراديا الحقائق التى قد لا توافق على فروضة التجريبية Johnson. Op, Cit. P, 591

هذا بالاضافة الى ان الايديولوجيا عادة ما تكون متعصبة ، فالايديولوجيا الراديكالية كالمحافظة تميل لان ترى الامور على انها اما اسود أو ابيض (Ibid, P, 607) أما العلم فلا يمتلك هذا الحسم التاطح ؛ وانما تتعرض فروضة أو قضاياه لدرجات متباينة من الدعم أو اثبات الزيف . ان

الايديولوجيا قد ترى المطلق كثيرا فى الاشياء أما العلم فيبنى كيانة على أساس النسبية .

بيد ان هناك اختلافا آخر بين الايديولوجيا والعلم فبينما أن أيه أيديولوجيا سواء كانت محافظة أو ثورية تسعى الى فرض أيديولوجيتها على النسق ، ذلك لان هذه الايديولوجيا تتضمن تحقيق مصالحة ؛ أو المحافظة على مصالحه المكتسبة ، فان العلماء على خلاف ذلك لديهم التزام أساسى بالحقيقة وبموضوعية هذه الحقيقة ، فبينما ان رجال الايديولوجيا يطلبون من النسق ان يسير فى فلكهم نجد ان العلماء هم الذين يسيرون ويخضعون للعلم كنسق ادراكى ولا مصلحة خاصة لهم سوى الكشف عن الحقيقة .

الا ان هذه الاختلافات التى أوردناها بين الايديولوجيا والعلم لا تمنع من وجود صلة ترى ضرورة القاء الضوء عليها ؛ حيث تنحصر هذه الصلة فى امكانية ان تستخدم القضية العلمية استخداما أيديولوجيا . فأى قضية يمكن ان تكون علمية اذا ما نظر اليها على انها صادقة أو خاطئة علميا ، بالقدر الذى توفر فيه وصفا للاجزاء والارتباطات داخل النسق الاجتماعى كما توجد موضوعيا . الا ان هذه القضية يمكن ان ينظر اليها على ان لها متواليات أو نتائج أيديولوجية الى المدى الذى قد يستخدمها شخص ماله قيمه واهدافة المعينة لتبرير دعم أو تغيير الاجزاء أو الارتباطات ذات الوجود الموضوعى (Barber, 1956, P, 135) ، معنى ذلك ان القضية العلمية ذاتها ليس لها أى التزام أيديولوجى مع اى معسكر (Merton. 1962. P, 42) وانما الالتزام يأتى من الشخص الذى أستعان بها لكى يدعم موقفه . ذلك لان القضية العلمية قد تصبح ذات دلالة ايدلوجية قدر ما يمكن ان تكون لها دلالة علمية .

هذا بالاضافة الى ان قضية الاستخدامات الايديولوجية للمعرفة مسألة عامة ، وتنطبق على كافة العلوم الاجتماعية ، ولاى وسيلة تحليل أو نسق نظرى داخل العلم الاجتماعى . وهنا كما فى كافة أقسام النشاط العقلى الاخرى فان اساءة الاستخدام لا تلغى امكانية الاستخدام . وان النظرية الاجتماعية مثل تلك النظريات أو أدوات البحث الكائنة بالعلوم الطبيعية قد تسلم نفسها بلا اهتمام أو انتباه لاستخدامها بواسطة الجماعات المتعارضة

أيديولوجيا لتحقيق أغراض لم تكن فى ذهن الباحث حين صياغته لهذه النظريات او تصميمه لهذه الادوات .

بيد ان هذا لا يمنع باحثا ما أو عالما ان يكون له موقف أيديولوجى ، ولا يقتصر ذلك على العلماء الاجتماعيين بل العلماء الطبيعيين أيضا ؛ فمثلا جاليليو الذى صاغ نضالا ضد المناخ الدينى وأيديولوجيا رجال الكنيسة ومهاجمته عن طريق التجريب للفكر الارسطى الحليف المدعم لفكر الكنيسة . كان يقوم فى هذه اللحظة بدور أيديولوجى الى جانب دوره العلمى ، الا أنه فى ادائه لدورة الايديولوجى يظل ملتزما اساسا بقضايا العلم ومتطلباته . ومثل هذا الموقف ينطبق على كارل ماركس وتالكوت بارسونز ، فهناك فى انساقهم النظرية قضايا علمية أساسا ، الا أنهم يستخدمون هذه القضايا العلمية استخدامات أيديولوجية معينة .

بذلك يظل مؤكدا ان الايديولوجيا قد تستفيد من قضايا النظرية السوسيولوجية كنظرية علمية لدعم موقفها وكيانها أو تحقيق اهدافها ، الا ان النظرية العلمية لا يتوقف نموها على اسهامات أو تأثيرات أيديولوجية معينة ، ونحن بذلك نخالف ما ذهب اليه ارفنج زايتلن والفن جولدنر وبخاصة تطرف الاخير .